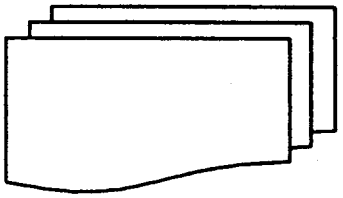

التـــلاؤم بيـــن مقدمـــة النسيـــب وقصيـــدة الرثـــاء
دراسة تطبيقية على شعر دريد بن الصمة

إعداد

د/محمد أحمد أحمد محمد أبو نبوت

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة

والأستاذ المشارك في كلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية

لجنة التحكيم

أ.د/ فتحـــى عبـــد القـــادر فريـــد عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/ أحمـــد عبـــد الجـــواد عكاشـــة عضو اللجنة العلمية المحكمة

المقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...

وبعد،،،،،،

فهناك الكثير من الأحكام النقدية والبلاغية التي ذكرها البعض من علماء النقد والبلاغة في القديم، وقد شاعت هذه الآراء وانتشرت، وجرت على ألسنة العلماء اللاحقين، وذكرت في كثير من كتب البلاغة والنقد دون تمحيص لها، وبيان وجه الصواب فيها ..

في حين أن النظر في هذه الآراء مرة أخرى، وتمحيصها ودراستها دراسة متأنية فاحصة بعد مراجعة كلام العرب وبيان طرائقها في تعبيراتها = يثبت أن الصواب غير هذا، وأن هذه الآراء لا تثبت أمام الكثير من كلام العرب مما يخالف هذا الحكم وينقضه..

ومن هذه الآراء ما ذكره ابن رشيق من أن عادة العرب لم تجر في أن يُبدأ الرثاء بالنسيب، كما يُبدأ المديح والفخر والهجاء وغيرها من أغراض الشعر بالنسيب، معللا ذلك أن الشاعر في حال الرثاء يكون مشغولا بما هو فيه من الحزن والأسى عن البدء بالنسيب .. ذاكرا قول ابن الكلبي : إنه لا يعلم قصيدة رثاء بدأت بالنسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة : " أرث جديد الحبل من أم معبد " .

في حين أن الذي ينعم النظر في أشعار العرب في الجاهلية والإسلام يجد أن كلام ابن رشيق غير دقيق، وأن الشعراء كما بدؤوا بالنسيب في المديح والهجاء والافتخار .. بدؤوا به أيضا في الرثاء، ولكن بعد اختيار النسيب الذي يناسب الرثاء ... وأن هناك الكثير من قصائد الرثاء التي بُدئت بالنسيب، مما يجعل كلام ابن الكلبي غير صحيح ..

من هنا أردت أن أدرس مقدمة النسيب في قصيدة الرثاء لأبين أولا : أن هناك كثيرا من قصائد الرثاء التي بدئت بالنسيب، وأبين ثانيا : مدى التلاؤم بين مقدمة النسيب وقصيدة الرثاء ..

وقد اخترت دريد بن الصمة لأن مرثيته في أخيه عبد الله والتي بدأها بالنسيب " أرث جديد الحبل من أم معبد " هي التي ذاعت وانتشرت بين العلماء قديما حتى قال ابن الكلبي ما قاله ...

وقد جاء البحث في تمهيد وأربعة مباحث :

أما في التمهيد فذكرت فيه موقف البلاغيين والنقاد من البدء بالنسيب في الرثاء، وتكلمت فيه عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهل حال الرثاء يناسبه البدء بالنسيب أم لا ؟ وإذا بدئ الرثاء بالنسيب فما نوع النسيب الذي يطابق حال الرثاء ؟ كما ذكرت بعض قصائد الرثاء التي بدئت بالنسيب للتدليل على أن هذا أمر جرت به عادة الشعراء قديما ..

أما المبحث الأول فقد بينت فيه التلاؤم بين مقدمة النسيب والغرض المراد.

والمبحث الثاني بينت فيه التلاؤم بين المعاني المبثوثة في مقدمة النسيب والمعاني المبثوثة في الرثاء .

والمبحث الثالث بينت فيه التلاؤم بين الصفات المذكورة للمرأة في مقدمة النسيب وصفات المرثي .

والمبحث الرابع بينت فيه التلاؤم بين صلة الشاعر بالمذكور في النسيب والرثاء

والذي ينظر في مقدمات النسيب عند دريد يجد أنها قد اختلفت في كل قصيدة عنها في القصيدة الأخرى فلم تأت على نمط واحد، وذلك نظرا لاختلاف مقصود الشاعر في كل قصيدة ؛ نظرا لاختلاف المرثي وصلة الشاعر به قوة وضعفا..

وأخيرا أسأل الله العلي العظيم أن يجعل السداد رائدي والتوفيق حليفي إنه أكرم مسئول وأعز مأمول .

الباحث

د. محمد أحمد أبو نبوت

موقف البلاغيين والنقاد من البدء بالنسيب في الرثاء

من المقرر عند البلاغيين والنقاد قديما وحديثا أن الكلام – حتى يدخل في باب الحسن والقبول لدى المتلقي – لا بد أن يطابق مقتضى الحال، وأن الكلام إذا لم يطابق مقتضى الحال كان كلاما مردودا ساقطا غير مقبول ...

ومن هنا نجد كثيرا من النقاد يرى أن قصائد الرثاء لا ينبغي أن يُذكر في مقدمتها نسيب، بناء على أن الرثاء يقتضي الحزن والألم .. وهذا لا يلائمه ذكر المرأة ووصفها ؛ إذ لا يكون ذلك إلا في حال السرور والبهجة.

ولذلك ذكر ابن رشيق أنه ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء، وقال ابن الكلبي – وكان علامة[1] – : لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة:

أَرَثَّ جَديدُ الحَبلِ مِن أُمِّ مَعبَدِ ∴ بِعاقِبَةٍ وَأَخلَفَت كُلَّ مَوعِدِ

ثم أكد على ذلك بقوله : " وأنا أقول[2]: إنه الواجب في الجاهلية والإسلام، وإلى وقتنا هذا، ومن بعده؛ لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة؛ وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة، وحين أخذ ثأره، وأدرك طلبته "[3] .

بل إن ابن رشيق عاب على ابن مقبل ذكر النساء في آخر القصيدة التي رثا بها عثمان بن عفان – رضي الله عنه – بقوله :

---

(١) كما نص على ذلك ابن رشيد ، وكأنه يوحي بذلك إلى صحة كلامه والتسليم به .

(٢) أي ابن رشيق نفسه .

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٢ / ١٦٩ ، ١٧٠ .تحقيق عبد الحميد هنداوي ، طبعة المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤ م .

" فأما ابن مقبل فمن جفاء أعرابيته أنه رثى عثمان بن عفان رضي الله عنه بقصيدة حسنة أتى فيها على ما في النفس، ثم عطف وقال:

فَدَعْ ذَا ولكِنْ عُلِّقَتْ حَبْلَ عَاشِقٍ ∴ لإِحْدَى شِعَابِ الحَيْنِ والقَتْلِ أَرْنَبُ

ولَمْ تُنْسِنِي قَتْلَى قُرَيْشٍ ظَعَائِنًا ∴ تَحَمَّلْنَ حَتَّى كَادتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ

يُطِفْنَ بِغِرِّيدٍ يُعَلِّلُ ذَا الصِّبَا ∴ إِذَا رَامَ أُرْكوبَ الغَوَايَةِ أَرْكَبُ

مِنَ الهِيفِ مَيْدَانٌ تَرَى نَطَفَاتِهَا ∴ بِمَهْلِكَةٍ أَخْرَاصُهُنَّ تَذَبْذَبُ

والنسيب في أول القصيدة على مذهب دريد خير مما ختم به هذا الجلف، على تقدمه في الصناعة .. " [1]

وبناء على ذلك رفض نسبة القصيدة التي تنسب لأعشى باهلة والتي بدئت بالنسيب مع أنها في الرثاء ؛ إذ مطلعها :

هاج الفؤاد على عرفانه الذكر ∴ وذكر خودٍ على الأيام ما يذر

قد كنت أذكرها والدار جامعة ∴ والدهر فيه هلاك الناس والشجر

وقرر أنها لابنة المنتشر واسمها الدعجاء، واستدل بما ذكره النحاس من أن هذين البيتين لا يعرفان في أول هذه القصيدة، ويرى أن مما يزيد الاسترابة بهما أن المتعارف عند أهل اللغة أنه ليس للعرب في الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة دريد .[2]

وقول ابن رشيق هنا لا يصح لعدة أسباب :

أولا : أن تعميم الأحكام مدعاة إلى الوقوع في الزلل والخطأ، فكل شاعر له حالة معينة خاصة به ربما تختلف عن غيره من الشعراء، ولذا ينبغي معرفة الأحوال التي عرضت للشاعر فأثرت في قوله فجاء على طريقة معينة تتفق مع حالته ؛ إذ كل شاعر تعرض له من الأحوال ما يستوجب اختلافا في طريقه نظمه عن غيره من الشعراء ممن لم يعرض لهم ما عرض له ...

---

(١) السابق ٢/١٧٠ .

(٢) ينظر العمدة ٢ /١٧٠ .

ثانيا : ليس دائما ذكر المرأة والحديث عنها يكون في حال السرور والبهجة، فقد يكون ذكر المرأة في حال الضيق والألم والحزن خاصة إذا كان الحديث عن الفراق والهجر .. وهذا يلائم حال الرثاء ويتلاقى معه ...

وعلى ذلك فقول ابن رشيق " لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة " بعيد عن ظاهر النسيب في مقام الرثاء ؛ إذ ليس فيه تشبيب بالنساء، بل هو ملائم لحال الشاعر من ذكر البين وقفر الديار وخلوها .. وكأن هذا إشارة إلى حال المرثي في انقطاع الوصل وخلو الدار عنه بفقده ... فهذا من ذاك، وهذا بين عند أدنى نظر..

ولهذا فإنك إذا نظرت إلى الرثاء الجيد في ابتدائه بالنسيب وجدته لا يخرج عن تقرير تلك المعاني، وهذا ما تجده بعد ..

ثم إنك إذا نظرت إلى ما ذكره الشعراء في ابتداء الرثاء بالنسيب لا تجد فيه شيئا من التشبيب بالمرأة، بل هو ذكر البين وقفر الدار[1] ؛ ولهذا ذكر العلماء فرقا بين النسيب والغزل، فالنسيب يتعلق بالمعاني المعنوية الخاصة بالنساء، كذكر أخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى والوجد واللوعة ....الخ، أما الغزل فهو ذكر المعاني الحسية كالتصابي، والاستهتار بمودات النساء، وذكر المحاسن والريق ... الخ .[2]

وهذا يرد ما ذهب إليه بعض الباحثين من ترجيح لرأي ابن رشيق حيث يقول بعد أن ذكر كلام ابن رشيق وتعليله لهذا الحكم " وأرى أن تعليل ابن رشيق السابق للمسألة تعليل قائم على فهم صحيح لطبيعة التجربة الشعرية، وعلى اعتداد بعنصر الصدق الشعوري في العمل الأدبي "[3].

كما أنه يرد ما ذهب إليه البعض الآخر بقوله : " ومن المهم أن نعلم أن العرف لم يجر على أن

---

(١) ينظر : دالية دريد تحليل بلاغي ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، د . على عبد الحميد عيسى ، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط ، العدد السابع والعشرون سنة ٢٠٠٨ م .

(٢) ينظر في ذلك : نقد الشعر لقدامة بن جعفر ١٢٣ ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣ / ١١٢ ، العمدة ١٣٧/٢ .

(٣) ينظر: مجلة جامعة أم القرى العدد التاسع عشر ص٢٨٤ بحث بعنوان : مقدمة القصيدة الجاهلية عند حسان بن ثابت للدكتور / محمود عبد الله أبو الخير .

تبدأ المراثي بتلك المقدمات التقليدية [الغزلية] إلا في قصائد قليلة تعد خروجا على هذه القاعدة .." ثم نقل كلام ابن رشيق وقال معقبا على ذلك : " وهي ملاحظة دقيقة حقا، فليس في الشعر الجاهلي مراث استهلها الشعراء بالنسيب إلا قليلا "[1].

ثالثا : قد يكون هناك صلة قوية بين المرأة المتحدث عنها في الغزل وبين الشخص المرثي .. وهذا يكون دافعا للجمع بينهما في حديث واحد كما سيتضح بعد قليل عند دريد في ذكره لأم معبد في رثاء أخيه ..

رابعا : أن ما ذكره ابن رشيق عن ابن الكلبي من أنه لا يعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد ابن الصمة غير سديد ؛ إذ هناك الكثير من القصائد الجاهلية وغير الجاهلية التي بدئت بالنسيب مع أنها في الرثاء منها:-

* قصيدة المرقش الأكبر في رثاء ابن عمه ثعلبة بن عوف بن مالك بن ضبيعة حين قتله مهلهل في حرب تغلب، وكان معه المرقش فأفلت، وقد بدأها بالنسيب، وأطال فيه، ولم يعب ؛ إذ بدأها بما يلائم الرثاء .. انظر إلى قوله :

هلْ بالدِّيارِ أنْ تُجيبَ صَمَمْ ∴ لو كانَ رَسْمٌ ناطِقاً كلَّمْ
الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَما ∴ رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ
ديارُ أَسْماءَ التي تَبَلَّتْ ∴ قَلْبي فَعَيْني ماؤُها يَسْجُمْ
أَضْحَتْ خَلاءً نَبْتُها ثَئِدٌ ∴ نوَّرَ فيها زَهْرُهُ فاعْتَمّ
بَلْ هَلْ شَجَتْكَ الظُّعْنُ باكِرَةً ∴ كأَنَّهنَّ النَّخْلُ مِنْ مَلْهَمْ
النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجُوهُ دَنا ∴ نِيرٌ وأَطْرافُ البَنانِ عَنَمْ
لم يُشْجِ قَلبي مِلْحوادِثِ إلـ ∴ ـا صاحِبي المَتْرُوكُ في تَغْلَمْ [2]

* كما أنك تجد ذلك كثيرا عند أبي ذؤيب الهذلي ؛ إذ في أكثر مراثيه يبدأها بالنسيب حتى صار هذا عنده أشبه بالمنهج المطرد، وقد ورد النسيب عنده في مقدمات قصائد الرثاء في خمسة

(١) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ١١٠ ، ١١١ ، د . حسين نصار ، طبعة دار المعارف ١٩٧٠ م .

(٢) ديوان المرقشين ٦٧ طبعة دار صادر بيروت .

مواضع، ومن ذلك قصيدته الشهيرة في أبنائه الذين ماتوا بالطاعون في عام واحد، وقد بدأها بالحوار بينه وبين أميمة، متخذا من سؤالها إياه عن تغير الذات والحال طريقا إلى الرثاء[1] فيقول :

أَمِنَ المَنونِ وَريبِها تَتَوَجَّعُ ∴ وَالدَهرُ لَيسَ بِمُعتِبٍ مَن يَجزَعُ
قالَت أُمَيمَةُ ما لِجِسمِكَ شاحِباً ∴ مُنذُ ابتَذَلتَ وَمِثلُ مالِكَ يَنفَعُ
أَم ما لِجَنبِكَ لا يُلائِمُ مَضجَعاً ∴ إِلّا أَقَضَّ عَلَيكَ ذاكَ المَضجَعُ
فَأَجَبتُها أَن ما لِجِسمِيَ أَنَّهُ ∴ أَودى بَنِيَّ مِنَ البِلادِ فَوَدَّعوا
أَودى بَنِيَّ وَأَعقَبوني غُصَّةً ∴ بَعدَ الرُقادِ وَعَبرَةً لا تُقلِعُ
فَغَبَرتُ بَعدَهُمُ بِعَيشٍ ناصِبٍ ∴ وَإِخالُ أَنّي لاحِقٌ مُستَتبَعُ [2]

* ومن ذلك قصيدة المهلهل بن ربيعة في رثاء ابن عمه ثعلبة بن عوف :

طِفلَةٌ ما ابنَةُ المُجَلِّلِ بَيضا ∴ ءُ لَعوبٌ لَذيذَةٌ في العِناقِ
فَأَذهَبي ما إِلَيكِ غَيرُ بَعيدٍ ∴ لا يُؤاتي العِناقَ مَن في الوِثاقِ
ما أُرَجّي في العَيشِ بَعدَ نَداما ∴ يَ أَراهُم سُقوا بِكَأسِ حَلاقِ[3]

* ومن ذلك قصيدة زهير بن أبي سلمى يرثي هرم بن سنان :

هاجَ الفُؤادَ مَعارِفُ الرَسمِ ∴ قَفرٌ بِذي الهَضَباتِ كَالوَشمِ
تَعتادُهُ عَينٌ مُلَمَّعَةٌ ∴ تُزجي جَآذِرَها مَعَ الأُدمِ
يا دَهرُ قَد أَكثَرتَ فَجَعَتَنا ∴ بِسَراتِنا وَقَرَعتَ في العَظمِ
وَسَلَبتَنا ما لَستَ مُعقِبَهُ ∴ يا دَهرُ ما أَنصَفتَ في الحُكمِ

---

(١) ينظر : المقدمة الغزلية في قصيدة الرثاء عند أبي ذؤيب مذاهب ومراتب وأحوال، د. مصطفى أحمد عبد اللاه جابر، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بجرجا ٢٠٠٨ م .

(٢) شرح أشعار الهذليين ، صنعة السكري ١ / ٤ ، ٧ ، تحقيق عبد الستار أحمد فرج ، طبعة مكتبة دار التراث ، طبعة ثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

(٣) ينظر : الأغاني ٥ / ٥٩ .

خُلُقي بَرى جِسمي وَشَيَّبَني ∴ جَزَعي عَلى ما ماتَ مِن هَرِمِ[1]

* ومن ذلك قصيدة النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث شمر الغساني :

دَعاكَ الهَوى وَاستَجهَلَتكَ المَنازِلُ ∴ وَكَيفَ تَصابي المَرءَ وَالشَيبُ شامِلُ
وَقَفتُ بِرَبعِ الدارِ قَد غَيَّرَ البِلى ∴ مَعارِفَها وَالسارِياتُ الهَواطِلُ
أُسائِلُ عَن سُعدى وَقَد مَرَّ بَعدَنا ∴ عَلى عَرَصاتِ الدارِ سَبعٌ كَوامِلُ[2]

* ومنهم كعب بن سعد الغنوي في رثاء أخيه أبي المغوار :

تَقولُ سُلَيمى ما لَجِسمِكَ شاحِبا ∴ كَأَنَّكَ يَحميكَ الشَرابَ طَبيبُ
فَقُلتُ وَلَم أَعيَ الجَوابَ وَلَم أَبُح ∴ وَلِلدَهرِ في الصُمِّ الصِلابِ نَصيبُ
تَتابُعُ أَحداثٍ يُجَرِّعنَ إِخوَتي ∴ فَشَيَّبنَ رَأسي وَالخُطوبُ تُشيبُ
لَعَمري لَئِن كانَت أَصابَت مَنِيَّةٌ ∴ أَخي وَالمَنايا لِلرِجالِ شَعوبُ
لَقَد كانَ أَمّا حِلمُهُ فَمُرَوَّحٌ ∴ عَلَيَّ وَأَمّا جَهلُهُ فَعَزيبُ[3]

* ومنهم لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه أربد :

طَرِبَ الفُؤادُ وَلَيتَهُ لَم يَطرَبِ ∴ وَعَناهُ ذِكرى خُلَّةٍ لَم تَصقَبِ
سَفهاً وَلَو أَنّي أَطَعتُ عَواذِلي ∴ فيما يُشِرنَ بِهِ بِسَفحِ المِذنَبِ[4]

* ومنهم متمم بن نويرة في قصيدته في رثاء أخيه مالك :

صَرَمَت زُنيبَةُ حبلَ من لا يَقطَع ∴ حبلَ الخليلِ وللأمانةِ تفجَعُ

---

(١) ينظر : ديوان الحماسة للبحتري ١٠٥ تحقيق الأب لويس شيخو ، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ٨٧ طبعة دار صادر بيروت .

(٣) ينظر : جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ٧٠١/٢ تحقيق د/ محمد علي الهاشمي ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م ، مختارات شعراء العرب لابن الشجري ١٠٧ ، ١٠٨ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، طبعة دار الجيل بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ٣٦ طبعة دار صادر بيروت .

ولقد حَرَصتُ على قليل متاعِها ∴ يوم الرحيل فـدمعُها المـستنفَعُ

جُذّي حبالَكِ يا زُنَيـبُ فـانني ∴ قد استبدُّ بوصلِ من هو أقطَعُ [1]

* كما أن الكميت أكثر من ابتداء الرثاء بالنسيب وكان ركابا لهذه الطريقة في شعره، كما ذكر ابن رشيق نفسه . [2]

* كما أن دريد بن الصمة نفسه الذي ذكره ابن الكلبي له قصيدتان بخلاف قـصيدة " أرث جديد الحبل " في الرثاء بدأهما بالنسيب كما سيتضح بعد قليل ..

فهل بعد كل هذا وغيره من قصائد الرثاء التي بدئت بالنسيب يصح قول ابن رشيق تبعـا لابن الكلبي : " لا نعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد ابن الصمة" ؟!! لا شك إذن في عـدم صحة هذا الحكم .

وعلى ذلك فبدء الرثاء بالنسيب لا يستقبح إذا كان النسيب ملائما لحال لرثاء من ذكـر البين وقفر الديار وخلوها من أهلها وما يتبع ذلك من الشجو ...إذ هو متفق مع المعاني الموجـودة في الرثاء، بل إنه مما يزيد الشاعر حزنا ويهيج قلبه وينكئ قرحه ...

أما الذي يستقبح من بدء الرثاء بالنسيب فهو ما دل على انصراف عن المرثي أو استهتار بمودات النساء وذكر محاسنهن والصبوة بهن لذلك ؛ لدلالة ذلك على الاستخفاف بالحال، وعـدم ملاءمته لمقام الرثاء، وذلك كما في رثاء ابن مقبل لسيدنا عثمان – رضي الله عنه – مما عابه فيه ابن رشيق لأنه قطع الكلام بما يدل على الانصراف عن الرثاء إلى ما هو أهم[3] ؛ ولذلك فـضل ابـن رشيق نسيب دريد في مفتتح القصيدة على ما ختم به ابن مقبل مع تقدمه في الصناعة ..[4]

---

(١) شرح المفضليات للتبريزي ١/ ١٣٧ تحقيق علي محمد البجاوي ، طبعة دار نهضة مصر .

(٢) ينظر : العمدة ٢ / ١٧٠ .

(٣) ينظر : دالية دريد ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤) ينظر: العمدة ٢ / ١٧٠ .

مقدمة النسيب في قصيدة الرثاء عند دريد بن الصمة

توطئة :

قبل تفصيل القول في أبيات النسيب التي جاءت في مقدمة قصيدة الرثاء عند دريد بن الصمة ينبغي التنبيه على عدة أمور :

أولا : أن حياة دريد بن الصمة على الرغم من طولها [1] – إذ عمّر أكثر من مائة سنة – إلا أن أخباره لم يذكر فيها أنه تمتع بالنساء ومحبتهن ووصالهن، وأن المرأة عنده لم تكن هي جانب اللهو والسرور والتمتع ... ويؤيد ذلك أنه لم يذكر ذلك في شعره، حتى حينما افتخر بأيام صباه وذكر ما فيها من مظاهر القوة والفتوة لم يتعرض فيها للحديث عن النساء حيث يقول [2]:

فَإن يَكُ رَأسي كَالثغامَةِ نَسلُهُ ∴ يُطيفُ بِيَ الولدانُ أَحدَبَ كَالقِردِ[3]

رَهينَةَ قَعرِ البَيتِ كُلَّ عَشيَّةٍ ∴ كَأَنّي أُرادَى أَن أُصَوَّبَ في مَهدِ[4]

فَمِن بَعدِ فَضلٍ في شَبابٍ وَقُوَّةٍ ∴ وَرَأسٍ أَثيثٍ حالِكِ اللَونِ مُسوَدِّ

فَقَد أَبعَثُ الوَجناءَ يَدمى أَظَلُّها ∴ عَلى ظَهرِ سَبسابٍ كَحاشِيَةِ البُردِ[5]

---

(١) ذكرت كتب التراجم أنه عاش حتى سقط حاجباه على عينيه وكُفّ بصره ، وأنه قتل يوم حنين على شركه وسنه مائة وعشرون سنة أو أكثر . ينظر في ذلك : الأغاني ١٠ / ٣ ، محاضرات الأدباء ٢ /١٩٩، المعمرون والوصايا ٢٧ ، الروض الأنف ٢٨٧ ، خزانة الأدب ٣ / ٤٦١ .

(٢) ديوان دريد بن الصمة ٧٨ تحقيق د / عمر عبد الرسول، طبعة دار المعارف .

(٣) الثغام : نبت على شكل الجَليّ وهو أغلظ منه وأجل عودا يكون في الجبل ينبت أخضر ثم يبيض إذا يبس .

(٤) أرادَى : أي كأني أرقى أو أصوب في المهد ، والمعنى : كأني طفل يصعد إلى الفراش أو ينزل منه ولا فعل له غير هذا .

(٥) الوجناء : الناقة التامة الخلق الغليظة اللحم الصلبة الشديدة ، سبساب : لغة في السبسب ، والسبسب:المفازة والقفر ، وقيل : الأرض البعيدة المستوية .

وَخَيلٍ كَأَسرابِ القَطا قَد وَزَعتُها ∴ عَلى هَيكَلٍ نَهدِ الجُزارَةِ مُرمَدِّ [1]

بل إنه حين تحدث عن قلبه وميله للحب جعله ضربا من الوهم والغرور سرعان ما يرجع عنه ويشيعه ...

هَل مِثلُ قَلبِكَ في الأَهواءِ مَعذورُ ∴ وَالشَيبُ بَعدَ شَبابِ المَرءِ مَغرورُ

قَد خَفَّ صَحبي وَأَشكوني وَأَرَّقَني ∴ خَودٌ تُرَبِّبُها الأَبوابُ وَالدورُ

لَمّا رَأَيتُ بِأَن جَدّوا وَشَيَّعَني ∴ يَومُ الصَبابَةِ وَالمَنصورُ مَنصورُ

واكَبتُهُم بِأَمونٍ جَسرَةٍ أُجُدٍ ∴ كَأَنَّها فَدَنٌ بِالطينِ مَمدورُ [2]

حتى زواجه في المرتين باء بالفشل، فزوجته الأولى سمادير وهي التي كنى عنها بـ (أم معبد في افتتاح داليته المشهورة) لم يدم زواجه بها طويلا ؛ إذ انتهى بطلاقها بعد أن تعرضت باللوم والعذل لدريد حين رأته شديد الجزع لفقد أخيه، وراحت تُصَغِّر من شأنه، أما زوجته الأخرى فلم يطل عهده بها ؛ إذ إنه حين تزوجها وجدها ثيبا فقام عنها وأقبل بسيفه ليضربها فتلقته أمها فحز يديها، وحينئذ هدأت نفس دريد، وقال معبرا عن ذلك [3] :

أَقَرَّ العَينَ أَن عُصِبَت يَداها ∴ وَما إِن تُعصَبانِ عَلى خِضابِ

فَأَبقاهُنَّ أَنَّ لَهُنَّ جَدّاً ∴ وَواقِيَةً كَواقِيَةِ الكِلابِ [4]

وهذا يدل على أن المرأة ليست أثيرة عنده ؛ إذ إنها لا تمثل جانب النشوة والسرور .. وإنما تمثل قدرا كبيرا من البؤس والشقاء .. وهذا كله يتلاقى مع سياق الرثاء والحزن ؛ ولذا لا ضير أن ذكرها دريد في مقدمات الرثاء .

---

(١) وزَعَ : كفّ ، الهيكل : الفرس الطويل ، نهد الجزارة : أي غليظ اليدين والرجلين ، مرمد : أي سريع السير.

(٢) الديوان ٨٨ ، والخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ، تربيها : تحفظها وتراعيها ، كنى بذلك عن الرفاهية والنعمة ، أشكوني : أي شكوا انشغاله عنهم ، أمون : ناقة أمنت العثار في مشيها ، جسرة : ناقة ماضية قوية ، أجد : ناقة متصلة الفقار تراها كأنها عظم واحد ، الفدن : القصر المشيد ، ممدور : مدهون بالطين .

(٣) الديوان ١٧٣ .

(٤) ينظر في ذلك : الأغاني ١٠ / ١١ ، ١٩ ، تاريخ ابن عساكر ٢ / ٢٢٣ .

ثانيا : ذكرت كتب التراجم [1] أنه رأى الخنساء وهي تمنأ بعيرا لها، وقد تبذلت حتى فرغت منه، ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ودريد يراها وهي لا تشعر به فأعجبته فانصرف إلى رحله وأنشأ يقول :

حَيّوا تُماضِرَ وَارْبَعوا صَحبي ∴ وَقِفوا فَإِنَّ وُقوفَكُم حَسبي
أَخْناسُ قَد هامَ الفُؤادُ بِكُم ∴ وَأَصابَهُ تَبَلٌ مِنَ الحُبِّ
ما إِن رَأَيتُ وَلا سَمِعتُ بِهِ ∴ كَاليَومِ طالي أَينُقٍ جُرُبِ
مُتَبَذِّلاً تَبدو مَحاسِنُهُ ∴ يَضَعُ الهِناءَ مَواضِعَ النُقبِ [2]

وقد أراد أن يتزوجها، ولكنها رفضت زواجه وردته لهرمه وكبر سنه، وقد ذكرت ذلك في شعرها ..

فأثر ذلك في نفسية دريد فغضب وهجاها في أكثر من موضع في شعره، ومن ذلك قوله :

وَقاكِ اللَهُ يا ابنَةَ آلِ عَمروٍ ∴ مِنَ الفِتيانِ أَمثالي وَنَفسي
فَلا تَلِدي وَلا يَنكَحكِ مِثلي ∴ إِذا ما لَيلَةٌ طَرَقَت بِنَحسِ
وَتَزعُمُ أَنَّني شَيخٌ كَبيرٌ ∴ وَهَل أَخبَرتُها أَنّي ابنُ أَمسِ [3]

وهذا يؤكد ما ذكرته سابقا من أن المرأة عنده لا تمثل الجانب المشرق في حياته و وإنما تمثل جانب الشقاء والهم والحزن .. وكل هذا يناسب سياق الرثاء .

ثالثا : أنه ذكر من النساء في مقدمة قصائده في غير الرثاء أكثر من امرأة، فذكر (الخنساء) حينما رآها تدهن بعيرا لها كما سبق ... وذكر (هند) في سياق الفخر وذكر بطولاته، ولكنه ذكرها وكأنها أنكرت كبره وشيبته فطلب منها ألا تنكر ذلك في قوله :

يا هندُ لا تُنكِري شَيبي ولا كِبَري ∴ فهمَّتي مثلُ حَدِّ الصَّارمِ الذَّكرِ
وَلِي جَنانٌ شديدٌ لو لقيتُ به ∴ حوادثَ الدَّهرِ ما جارتْ على بشرِ

---

(١) ينظر : الأغاني ١٠ / ٢١ ، ٢٢

(٢) الديوان ٤٣ .

(٣) الديوان ١١٥ .

عُمْرِي مـع الـدَّهرِ موصـولٌ بـآخِرِهِ ∴ وإنما فـضْـلُه بالشّمسِ والقـمـرِ[1]

وقد ذكر محقق الديوان أن هندا لعلها تكون الخنساء، أو لعلها امرأة أخرى أنكرت عليه شيبته وكبره ..[2] ولكن الأولى أنها الخنساء ؛ لأنه ذكر هندا في قصيدة أخرى ووصفها بقوله :

بِأَنّي قَد تَرَكتُ وِصـالَ هِنـدٍ ∴ وَبُدِّلَ وُدُّهـا عِنـدي ذُهـولا

فَلا تَلِدي وَلا يَنكَحـكِ مِثلـي ∴ إِذا طَرَدَ السَفا هَيفاً نَـصولا[3]

وهذه نفس الصفات التي وصف بها الخنساء حين رفضت خطبته .. كما أنه ذكر (سلمى) ولكنه لم يذكر منها الحب والوصال والتمتع، كما أنه لم يصفها بصفات الحسن والجمال، وإنما هو تذكرها فقط، وانهمرت عيناه بالدمع لهذا التذكر، وسرعان ما ترك هذا التذكر ودخل في سياق القصيدة من الفخر وكثرة القتل في الحرب :

أَمِن ذِكرِ سَلمى ماءُ عَينِكَ يَهمِـلُ ∴ كَما اِنهَلَّ خَرزٌ مِن شَعيبٍ مُشَلـشِلُ

وَماذا تُرَجّـي بِالـسَلامَةِ بَعـدَما ∴ نَأَت حِقَبٌ وَابيَضَّ مِنـكَ المُرَجَّـلُ

وَحالَت عَوادي الحَربِ بَيني وَبَينَها ∴ وَحَربٌ تُعِلُّ المَوتَ صِرفاً وَتُنـهِلُ[4]

رابعـا : أنـه ذكـر مـن النـساء في مقدمـة قـصائد الرثـاء زوجتـه الأولى (أم معبد) ونص عليها صراحة في داليته المشهورة في رثاء أخيه عبد الله :

أَرَثَّ جَديدُ الحَبلِ مِن أُمِّ مَعبَـدِ ∴ بِعاقِبَةٍ وَأَخلَفَت كُلَّ مَوعِـدِ[5]

كما ذكر (أميمة) في رثاء أخيه خالد :

أُمَيمَ أَجِدّي عافِيَ الرُزءِ وَاجِـشَمي ∴ وَشُدّي عَلى رُزءٍ ضُلوعَكِ وَاِبأَسي[6]

---

(١) الديوان ٩٨ .

(٢) الديوان ٩٨ هامش رقم ١ .

(٣) الديوان ١٣٩ .

(٤) الديوان ١٤٣ ، ١٤٤ ، شعيب : السقاء البالي ، مشلشل : متتابع ، المرجل : الشعر .

(٥) الديوان ٥٧ .

(٦) الديوان ١٢٤ .

وهناك موضع ثالث لم ينص فيه على اسم امرأة بعينها، وإنما ذكرها بضمير الغيبة، وذلك في قصيدته في رثاء معاوية بن عمرو بن الشريد :

أَلا بَكَرَت تَلومُ بِغَيرِ قَدرِ ∴ فَقَد أَحفَيتِني وَدَخَلتِ سِتري[1]

وهذه المواضع هي التي سنتناولها بالدرس والتحليل، إلا أن القصيدة الأولى " أرث جديد الحبل من أم معبد " هي الأصل والعمدة ؛ وذلك نظرا لظهور النسيب في مقدمة القصيدة، وتعدد المعاني المذكورة فيه، بخلاف مقدمتي القصيدتين الثانية والثالثة .. ولذا سوف أجعل مقدمة النسيب في القصيدة الأولى الأصل الذي أقارن به النسيب الوارد في القصيدتين الثانية والثالثة..

(١) الديوان ١٠٩ .

المبحث الأول

التلاؤم بين مقدمة النسيب والغرض المراد

ورد النسيب في مطلع قصائد الرثاء عند دريد بن الصمة في ثلاث قصائد على النحو الآتي:

القصيدة الأولى في رثاء أخيه عبد الله، وقد جاءت القصيدة في الديوان فيما يقرب من خمسين بيتا، كان نصيب النسيب منها عشرة أبيات، وأبيات النسيب فيها جاءت على النحو التالي:

أَرَثَّ جَديدُ الحَبلِ مِن أُمِّ مَعبَدِ ∴ بِعاقِبَةٍ وَأَخلَفَت كُلَّ مَوعِدِ
وَبانَت وَلَم أَحمَد إِلَيكَ جوارها ∴ وَلَم تَرجُ فينا رِدَّةَ اليَومِ أَو غَدِ
مِنَ الخَفَراتِ لا سَقوطاً خِمارُها ∴ إِذا بَرَزَت وَلا خَروجَ المُقَيَّدِ
وَكُلَّ تَباريحِ المُحِبِّ لَقيتُهُ ∴ سِوى أَنَّني لَم أَلقَ حَتفي بِمَرصَدِ
وَأَنّيَ لَم أَهلِك سُلالاً وَلَم أَمُت ∴ خُفاتاً وَكُلّاً ظَنَّهُ بِيَ عُوَّدي
كَأَنَّ حُمولَ الحَيِّ إِذ مَتَّعَ الضُحى ∴ بِناصِيَةِ الشَحناءِ عُصبَةُ مِذوَدِ
أَوِ الأَثأَبُ العُمُّ المُخَرَّمُ سوقُهُ ∴ بَدَاءَةَ لَم يُخبَط وَلَم يَتَعَضَّدِ
ظَواعِنُ عَن خُرجِ النُمَيْرَةِ غُدْوَةً ∴ دوافِعُ في ذاكَ الخَليطِ المُصَعِّدِ
أَعاذِلَ مَهلاً بَعضُ لَومِكِ وَاقصِدي ∴ وَإِن كانَ عِلمُ الغَيبِ عِندَكِ فَارشِدي
أَعاذِلَتي كُلُّ امرِئٍ وَابنُ أُمِّهِ ∴ مَتاعٌ كَزادِ الراكِبِ المُتَزَوِّدِ (١) (٢)

وهذه الأبيات في النسيب يلاحظ فيها بداية عدة أمور:

---

(١) هذه هي مقدمة القصيدة، أما القصيدة التي تلاءمت مع المقدمة فهي من أول قوله :

نصحت لعارض وأصحاب عارض ∴ ورهط بني السوداء والقوم شهد

إلى قوله :

وطيب نفسي أنني لم أقل له ∴ كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ ذكر الأبيات التي فيها التلاؤم مع المقدمة كل في موضعه .

(٢) الديوان ٥٧ .

أولاً: أنه بدأ الر ثاء هنا بذكر (أم معبد) وأم معبد هذه التي ذكرها هنا كانت امرأته فطلقها لأنها رأته شديد الجزع على أخيه فعاتبته على ذلك، وصغرت شأن أخيه وسبته، فطلقها .(١)

وهذا يدل على أمر مهم هنا، وهو أن فراقها وبينها وما قاله فيها إنما هو بسبب موقفها من أخيه وتصغير شأنه، بما يدل على نوع من التحدي ؛ إذ القصيدة في رثاء أخيه وذكر محاسنه وأخلاقه في قومه، وكيف ذبّ عنه ودافع وقاتل دونه قتال امرئ آسى أخاه بنفسه – كما قال :

فَطاعَنتُ عَنهُ الخَيلَ حَتّى تَبَدَّدَتْ ∴ وَحَتّى عَلاني حَالِكُ اللَونِ أَسوَدِ

قِتالُ اِمرِئٍ آسى أَخاهُ بِنَفسِهِ ∴ وَيَعلَمُ أَنَّ المَرءَ غَيرَ مُخَلَّدِ

فذكر أم معبد في هذا السياق دليل على تمكن أخيه من نفسه، واعتلاقه في قلبه، بحيث يضحي له بكل غال ونفيس ..

وهذا التلاؤم بين ذكر (أم معبد) وما ذكره لها من صفات الفراق وعدم الوصل وبين معاني الرثاء تلك يعطيك دلالة على أن دريدا لم يجاف النفس بهذا المطلع ..

فليس النسيب هنا من النوع الجزل الطروب الذي يعيد ماضي حبيب إليه .. بل هو مما يثير عنده داعي الحزن والأسى ... وبهذا تجد ترابطا بين المعاني في المطلع وما قصد إليه دريد في هذه القصيدة .(٢)

ثانيا : أنه لم يذكر من (أم معبد) الوصل واللقاء، وإنما ذكر من صفاتها ما يتلاقى مع سياق الرثاء ، كما سيتضح بعد قليل في تحليل هذه الأبيات .

ثالثا : أنه لم يذكر أم معبد في قصائد أخرى غير هذه القصيدة صراحة، وإن كان قد أشار إليها ضمنا كما سيتضح فيما بعد في رثائه لمعاوية بن عمرو بن الشريد .

رابعا : أنه ختم أبيات النسيب بقوله :

أَعاذِلَ مَهلاً بَعضُ لَومِكِ وَاقصِدي ∴ وَإِن كانَ عِلمُ الغَيبِ عِندَكِ فَارشِدي

أَعاذِلَتي كُلُّ اِمرِئٍ وَابنُ أُمِّهِ ∴ مَتاعٌ كَزادِ الراكِبِ المُتَزَوِّدِ

---

(١) ينظر : الأغاني ١٠ / ١٠ ، الأصمعيات ١٠٦ للأصمعي تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، طبعة دار المعارف ١٩٥٥ .

(٢) ينظر : دالية دريد ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وهذا يتلاقى مع بداية ذكره لأم معبد وأنه انقطع حبل وصالها، كما أنه يتلاقى مع إيثاره لأخيه على زوجه، وأنه لا يقبل لوما في حزنه على أخيه... فضلا عن أن فيه انتقالا حسنا وخروجا جيدا من الغزل إلى الرثاء..

والقصيدة الثانية في رثاء معاوية بن عمرو بن الشريد أخي الخنساء: وسبب هذا الرثاء ما ورد من أن دريد بن الصمة ومعاوية بن عمرو تحالفا وتواثقا، إن هلك أحدهما أن يرثيه الباقي بعده، وإن قتل أن يطلب بثأره، فقتل معاوية بن عمرو، قتله هاشم بن حرملة بن الأشعر المُرّي، فرثاه دريد بهذه القصيدة [1].

وقد جاءت هذه القصيدة في ستة عشر بيتا، جاءت مقدمة النسيب فيها في خمسة أبيات، وهي كالتالي :

أَلا بَكَرَت تَلومُ بِغَيرِ قَدرِ ∴ فَقَد أَحفَيتِني وَدَخَلتِ سِتري

فَإِن لَم تَترُكي عَذلي سَفاهاً ∴ تَلُمكِ عَلَيَّ نَفسُكِ أَيَّ عَصرِ

أَسَرَّكِ أَن يَكونَ الدَهرُ هَذّا ∴ عَلَيَّ بِشَرِّهِ يَغدو وَيَسري

وَألا تُرزَئي نَفساً وَمالاً ∴ يَضُرُّكِ هُلكُهُ في طولِ عُمري

لَقَد كَذَبَتكِ نَفسُكِ فَاكذِبيها ∴ فَإِن جَزَعٌ وَإِن إِجمالُ صَبرِ [2]

والقصيدة الثالثة في رثاء أخيه خالد : وقد جاءت هذه القصيدة في الديوان في ثمانية أبيات، حازت مقدمة النسيب فيها على بيتين فقط، وهما كالتالي :

أُمَيمَ أَجِدّي عافِيَ الرُزءِ وَاجشَمي ∴ وَشُدّي عَلى رُزءٍ ضُلوعَكِ وَاِبأَسي

---

(١) ينظر : الأغاني ١٠ / ٢٨ .

(٢) الديوان ١٠٩ ، ١١٠ ، وبكرت : أسرعت ، قدر : مبلغ ومقدار، أحفيتني : من الإحفاء وهو الاستقصاء في الكلام والمنازعة ، دخلت ستري : أي هجمت عليّ في خلوتي وبالغت في اللوم ، سفها : نقص في العقل ، تلمك: جواب إن في مستهل البيت من اللوم ، هذّا : من الهذ وهو سرعة القطع ، كذبتك نفسك : منتك الأماني وخيلت إليك من الأمل ما لا يكاد يكون ، إن جزع وإن إجمال صبر : أي إما أن تجزعي جزعا وذلك لا فائدة فيه ، وإما تجملي الصبر إجمالا وهو أجدى .

حَـرامٌ عَـلَيها أن تَرى في حَـياتِها ∴ كَـمِثلِ أبي جَعـدٍ فـغـوري أوِ اجـلِـسي[1]

وهذه القصائد الثلاث اجتمعت في الغرض العام وهو الرثاء، إلا أن بينها فروقا في الغرض الخاص ؛ إذ القصيدة الأولى جمعت مع النسيب غرضين وهما :

- إظهار حبه لأخيه في نصحه له ومدافعته عنه، وقتال القوم دونه، ولو كان ذلك ببذل روحه ونفسه .. بما يدل على بذل كل غال دونه ..[2] ومن ثَم دفع اللوم عن نفسه، وإثبات أنه لم يتوان في نصرة أخيه، وأنه لم يقصر في هذا الجانب .. وأنه لا يلام ولا يعاتب في هذا الأمر..
- بيان صفات أخيه وسجاياه ومآثره التي كان عليها قبل قتله والتي كان يعرفها دريد معرفة تامة ويقينية حتى أصبحت عقيدة عنده تستحق أن يذكره ويرددها حينا بعد حين ..

وتعدد الغرض في القصيدة الأولى سببه طول الزمن بعد مقتل أخيه وقوله لهذه القصيدة ؛ إذ قالها بعد مقتل أخيه بسنة، وحين أخذ بثأره، وأدرك طلبته كما ذكر ابن رشيق [3] وهذا أثر على هدوء نفسه، ومن ثَمّ إعمال عقله في استجماع أغراض متعددة تخدم الغرض الرئيس من القصيدة، وإن كانت بعض أجزائها يظهر بعيدا الرثاء ..، وهذا له ما يقويه من نظم القصيدة والمعاني المذكورة فيها ؛ إذ في القصيدة ما يدل على أنه تعرض للوم على مقتل أخيه وهو معه في المعركة، فأخذ يبين أنه لم يقصر في دفاعه عن أخيه وأنه بذل كل ما وسعه في الدفاع عن أخيه ..وأخذ يبين الوجوه المتعددة التي بذلها في دفاعه عن أخيه، مما يدل على أن نفسه قد هدأت .. وهذا إنما يكون بعد مقتل أخيه بفترة ليست بالقصيرة..

بينما القصيدتان الثانية والثالثة قامتا على النسيب المحض من ذكر صفات المرثي، والحزن والتفجع عليه..

---

(١) الديوان ١٢٤ ، أميم على النداء بالترخيم والأصل يا أميمة ، اجشمي : من جشم أي تكلف على مشقة ، أبي جعد : كنية أخيه خالد ، غوري : الغور قمامة وما يلي اليمن ، اجلسي الجلْسُ : نجد سميت بذلك ، كما في اللسان (جلس) .

(٢) ينظر : دالية دريد ٢٧٩ .

(٣) ينظر : العمدة ٢ / ١٧٠ .

والذي ينعم النظر في مقدمات النسيب في هذه القصائد الثلاث يجد أنها متلائمة مع الغرض في كل قصيدة تلاؤما تاما، وأنها تتلاقى معه في تقرير ما أراده الشاعر ..

ففي قصيدته الأولى في رثاء أخيه عبد الله نجد أن مقدمة النسيب تتلاءم وتتلاقى مع كل غرض من غرضي القصيدة التقاء تاما، وأنها لا تتنافي أو تتجافى مع أي من الغرضين اللذين بنى عليهما دريد قصيدته، وإليك بيان هذا .

فالذي ينعم النظر في نظم الأبيات التي دافع فيها عن نفسه، وأثبت فيها حبه لأخيه ودفاعه عنه، وأنه لم يقصر في ذلك .. = يجد أنها تقوم على أمرين :

الأول : إثبات هذا الحب، وهذا الإخلاص لأخيه بالأقوال، وهذا يظهر من قوله :

وَقُلتُ لِعارِضٍ وَأَصحابِ عارِضٍ ∴ وَرَهطِ بَني السَوداءِ وَالقَومُ شُهَّدي

عَلانِيَةً ظُنّوا بِأَلفَي مُدَجَّجٍ ∴ سَراتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ

وَقُلتُ لَهُم إِنَّ الأَحالِيفَ أَصبَحَت ∴ مُطَنَّبَةً بَينَ الستارِ فَثَهمَدِ [1]

ورغم بذل النصح لأخيه أمام الجميع " والقوم شهدي " حتى لا ينكر أحد منهم هذه النصيحة، وهو بذلك يدلل على صدقه في نصح أخيه ؛ لأنه لا يمكن أن يدعي فعل ذلك أمام الجميع ثم لا يكذبه فيه أحد .. رغم ذلك إلا أنهم خالفوا قوله ولم يستمعوا لنصحه لهم، حتى وردوا موارد التهلكة ..

ومع ذلك فإن هذه المعارضة له ولقوله وعدم استماعهم له .. رغم كل ذلك إلا أنه لم يتخل عن أخيه وقومه، ولم يقطع النصح لهم، بل استمر في نصحه لهم، وهذا واضح من قوله بعد ذلك :

وَلَمّا رَأَيتُ الخَيلَ قُبلاً كَأَنَّها ∴ جَرادٌ يُباري وِجهَةَ الريحِ مُغتَدي

---

١ - عارض : المقصود به أخوه عبد الله ؛ إذ كان يسمى عبد الله وخالدا وعارضا وكان يكنى : أبا أوفى ، وأبا ذفافة ، وأبا فرعان . ينظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨١٢ ،والفارسي المسرد : الدروع ، والسرد تتابع الشيء ، كأنه أراد في الدروع تتابع الحلق في النسيج ، والأحاليف : يقصد بهم عبسا وفزارة وأشجع، مطنبة : مقيمة ، والستار وثهمد : جبلان .

أَمَـــرتُهُمُ أَمـــري بِمُنعَـــرَجِ اللِـــوى ∴ فَلَم يَستَبينوا النُصحَ إِلّا ضُحى الغَدِ
فَـــلَمّا عَـــصوني كُـــنتُ مِنهُم وَقَد أَرى ∴ غِـــوايَـــتَـــهُـــم وَأَنّني غَيرُ مُهتَدي

بل إنه – مع مخالفتهم له وعدم الاستماع له – لم يتركهم، بل ظل معهم، وهذا واضح من قوله : " كنت منهم " ؛ إذ هذه الجملة تفيد موافقة أخيه على علمه بأنها غي، وترك مخالفتـــه مـــع معرفته أنها رشد، كراهة الخروج من هواه، وترك مطابقته على رضاه[1] وهذا غاية الحـــب وغايـــة الإخلاص .

الثاني : إثبات هذا الحب، وهذا الإخلاص بالأفعال، فهو لم يكتف بالتدليل على حبه لأخيه بمجرد القول، وإسداء النصح .. ولكنه تعداه إلى إثبات ذلك بالأفعال، وأنه لم يقعد عـــن نـــصرة أخيه، ولم يتأخر في هذه النصرة، بل هب مسرعا لنصرته، وهذا واضح من قوله:

فَجِئتُ إِلَيـــهِ وَالرِمـــاحُ تَنوشُـــهُ ∴ كَوَقعِ الصَياصي في النَسيجِ المُمَـــدَّدِ
وَكُنتُ كَذاتِ البَوِّ ريعَت فَأَقبَلَت ∴ إِلى جَلَدٍ مِن مَسكِ سَقبٍ مُقَـــدَّدِ [2]

فالفاء في قوله : " فجئت " تفيد سرعة المجيء، وأنه لم يتوان وإنما أقبل مسرعا .. كمـــا أن البيت الثاني فيه تأكيد لهذه السرعة في نصرة أخيه؛ إذ شبه نفسه في سرعة إقباله على أخيه بسرعة إقبال الناقة إلى ولدها .. ومع أن لهفة الناقة على ولدها وحنينها إليه، وسرعة رجوعها إليه أمـــر مقرر عند القوم .. إلا أن دريدا هنا زاد من سرعة إقبال هذه الناقة بقوله : " ريعت" وما في هـــذه الكلمة من الدلالة على شدة الفزع والخوف .. ولذا عطف على ذلك بالفاء في قوله : " فأقبلت ".

ومع سرعة إقباله على أخيه لنصرته والدفاع عنه، فإنه بين صور هذا الدفاع، وفـــصل هـــذه الأفعال التي فعلها وذلك بقوله :

فَطاعَنـــتُ عَنـــهُ الخَيـــلَ حَتّـــى تَبـــدَّدَتْ ∴ وَحَتّـــى عَـــلاني حَالِـــكُ اللَـــونِ أَســـوَدِ

---

(١) ينظر : ديوان المعاني ١ / ١٢٢ لأبي هلال العسكري تحقيق كرنكوا ، نشر القدسي ١٣٥٢ هـ .

(٢) تنوشه : النوش : التناول باليد ، الصياصي : جمع صيصة وهي خشبة الحائك في نسجه ، البوّ : أصله جلـــد فصيل يحشى تبنا لتدر عليه الناقة إذا مات ولدها ، المسك : الجلد لأنه يمسك ما وراءه مـــن اللحـــم والعظـــم ، السقب : الذكر ، مقدد : ممزق .

قِتالُ امرِئٍ آسى أَخاهُ بِنَفسِهِ ∴ وَيَعلَمُ أَنَّ المَرءَ غَيرَ مُخَلَّدِ

وأنه لم يتركه حتى مزقته الرماح، وأنه لم يستطع الوقوف والمشي معتدلا، وهذا ظاهر من قوله :

فَما رِمتُ حَتّى خَرَّقَتني رِماحُهُم ∴ وَغودِرتُ أَكبو في القَنا المُتَقَصِّدِ

وهو بذلك يثبت أنه ضحى في سبيل أخيه بكل ما يملك من غال ورخيص، حتى إنه لم يبخل بنفسه على أخيه ..

ودفاعه عن أخيه بالأقوال والأفعال وتفصيل ذلك يتلاقى ويتلاءم مع ما ذكره في مقدمة النسيب من الحديث عن أم معبد ؛ لأنه إذا ضحى في سبيل أخيه بالقول والفعل، فإن حاله مع أم معبد لا يخرج عن هذا ؛ لأنها كانت مما ضحي به في سبيل أخيه، فأم معبد لما لامته في شدة حزنه على أخيه وجزعه عليه، وصغرت شأن أخيه وسبته .. لم يرض منها هذا اللوم وهذا السب لأخيه، ولم يكتف معها بالزجر بالقول، والتعنيف باللسان، ولكنه تجاوز ذلك إلى الفعل فطلقها وأبعدها وأبانها منه إلى غير رجعة .. فعل كل ذلك في سبيل أخيه، مع أنه كان يحبها وأن عهده بها كان جديدا.. وهذا واضح من نظم البيتين في مطلع القصيدة :

أَرَثَّ جَديدُ الحَبلِ مِن أُمِّ مَعبَدِ ∴ بِعاقِبَةٍ وَأَخلَفَت كُلَّ مَوعِدِ

وَبانَت وَلَم أَحمَد إِلَيكَ جوارها ∴ وَلَم تَرجُ فينا رِدَّةَ اليَومِ أَو غَدِ

فهو قد بين أن وصلها جديد لم يقدم بعد " جديد الحبل " وأنه لم يطلقها إلا بعد أن قالت في أخيه ما قالته، وهذا ما يوحي به القيد في قوله " بعاقبة " ؛ إذ يدل على أن حبلها لم يكن كذلك في أوله وبداية وصلها له .. ولكنه أرث آخرا عند تعرضها لأمر أخيه .. كما أن هذا القيد ظاهر في الاحتراز؛ خوفا من توهم أن حبلها كان قديما .. فدلك من طرف خفي على أثر ذكرها لأخيه في حدوث البلى والنقض للوصل .. بعد أن كان قويا جديدا ..[1]

وقد أكد على تضحيته بها في سبيل أخيه باليت الثاني "وبانت..." وأنه لم يحمد جوارها لأجل أخيه فقط، ولعل ذلك هو سر العدول إلى الخطاب في قوله " إليك " وكأنه يخاطب أخاه بهذا

---

(١) ينظر : دالية دريد ٢٨٣ .

.. وإلا فإنه قبل ذلك كان يحمد جوارها، ومما يدل على أنه كان يحمد جواره قبل ذلك ما ذكره لها من صفات الحسن والجمال، والعفة والوفاء، وأنه لقي معها كل أنواع المحبة .. وهذا ظاهر من قوله بعد ذلك :

مِنَ الخَفَراتِ لا سَقوطاً خِمارُها ∴ إذا بَرَزَت وَلا خَروجَ المُقَيَّدِ
وَكُلُّ تَباريحِ المُحِبِّ لَقيتُهُ ∴ سِوى أَنَّني لَم أَلقَ حَتفي بِمَرصَدِ
كَأَنَّ حُمولَ الحَيِّ إِذ مَتَعَ الضُحى ∴ بِنا صِيَةِ الشَجناءِ عُصبَةُ مِذوَدِ
أَوِ الأَثأَبُ العُمُّ المُخَرَّمُ سوقُهُ ∴ بِشابَةَ لَم يُخبَط وَلَم يَتَعَضَّدِ[1]

فقد وصفها بالحياء والعفة وعدم التبذل في المشية إذا خرجت .. وهذا ما يدل عليه قوله : " من الخفرات لا سقوطا خمارها ... " ولذا لا عجب أن يلاقي معها كل تباريح المحب ؛ ولذا فإنه حين فارقته ورحلت عنه ظل متعلقا بها ؛ ولذا وصف رحلها التي رحلت عليه بما يضفي عليه صفات الحسن والجمال والعلو ..

وهذا يرد ما ذهب إليه بعض الباحثين بقوله : " والتقييد بالجملة الحالية " ولم أحمد إليك جوارها " للدلالة على بغضه لها في جوارها، وأنه لم يأسف لفراقها ... فقد وسمها بخلف الموعد ونبذ المواثيق ... فدلك بهذا على أن سوء أخلاقها قديم، وبهذا تعلم سر افتتاح دريد هذه المرثية بـ " أم معبد " خصوصا دون غيرها من النساء ؛ لأنه لم ير منها خيرا البتة، فهو معها في هم دائم، فلم يحمد مرة جوارها، وهذا ما يناسب الرثاء "[2]

فإذا كانت جميلة عفيفة .. وكان عهدها جديدا معه، وأنه كان يحبها.. ومع ذلك طلقها وأبعدها من أجل أخيه هذا غاية التضحية، وهذا أدل على حبه لأخيه وأنه ضحى لأجله بكل ما

---

(١) الخفرات : الحييات ، المقيد : موضع الخلخال من المرأة ، الشحناء : اسم موضع ، عصبة بفتح فسكون : الشجرة تعلق في شيء عال فتكون كالخيمة عليه ، مذود : اسم جبل ، الأثأب : شجر ينبت في بطون الأودية بالبادية وقيل : الأثأب شبه القصب له رؤوس كرؤوس القصب ، العُمّ : الطوال ، يخبط ويتعضد : يقطع وينثر أوراقه .

(٢) دالية دريد ٢٩١ ، ٢٩٢ .

يملك من حبيب وغال .. بخلاف ما لو كانت عشرقما سيئة وأنه لم يحمد لها عشرة أبـدا .. فـإن التضحية حينئذ تكون أقل وهذا ما ينأى عنه غرض القصيدة وسياقها .. ومما يؤيد ذلك أنه جعلها بعض لحمه الذي ضحى به لأجل أخيه، وذلك ظاهر من قوله في قصيدة أخرى :

أَعَبدَ اللَه إن سَـبَّتكَ عِرسـي ∴ تَقدَّمَ بَعضُ لَحمي قَبـلَ بَعـضِ

إذا عِرسُ امرِئٍ شَتَمَت أخـاهُ ∴ فَلَيسَ فُـؤادُ شـانئِهِ بِحَمـضِ

وقد فسر محقق الديوان قوله " تقدم " بمعنى تقطع بدلالة الرواية الأخـرى " تـساقط"[1] وهذا يدلنا على أن دريدا قدم بعض لحمه لأجل أخيه وهو لم يقدم في هذا السياق إلا زوجه، والتي عبر عنها بـ " عرسي" مما يدل على أن زواجه بها كان حديثا ..

وبذلك يظهر جليا التناسب بين مقدمة النسيب والغرض الأول من القصيدة، من الـدفاع عن أخيه وتعظيم شأنه، وأنه لم يبخل عليه بكل ما يستطيع .. وبهذا يتحقق صدق قوله :

وَهَوَّنَ وَجدي أَنَّني لَم أَقُل لَـهُ ∴ كَذَبتَ وَلَم أَبخُل بِما مَلَكَت يَدي

هذا بالنسبة للغرض الأول .

أما وجه التلاقي والتلاؤم بين مقدمة النسيب والغرض الثاني من القصيدة وهـو إثبـات صفات أخيه وسجاياه ومآثره التي كان عليها قبل قتله والتي كان يعرفها دريد معرفة تامة ويقينية حتى أصبحت عقيدة عنده تستحق أن يذكرها ويرددها حينا بعد حين .. فإنه مبني على ما سـبق؛ لأن الغرض من ذكر صفات أخيه ومآثره وسجاياه مبني على الغرض السابق من إظهار تضحيته في سبيل أخيه.. ومن ثم لا يلام على قتل أخيه وهو معه في المعركة؛ ولذا أخر صفات أخيه إلى آخـر القصيدة، بل إنه بعد ذكر صفات أخيه عاد إلى ذكر صفات الفرس الذي يغير عليه من قوة ومتانة وسرعة .. وهذا يدلنا على قوته وشجاعته وبالتالي فلا يمكن أن يقصر في دفاعه عن أخيه ..

وإذا كانت مقدمة النسيب متلاقية مع الغرض الأول من القصيدة – كما ذكـرت قبـل قليل– فإنها تتلاقى أيضا مع الغرض الثاني؛ إذ هو مبني على الغرض الأول، هذا بداية ..

---

(١) الديوان ١٢٦ ، هامش ١ وهي رواية الوحشيات ٨٥ لأبي تمام ، تحقيق عبد العزيـز المـيمني ، طبعـة دار المعارف ١٩٦٣.

أما إذا جئنا إلى بيان الملاءمة بين مقدمة النسيب والملاءمة بين صفات أخيه فإنه يلاحظ أن أول صفة ذكرها لأخيه هي رحيله عنه وتركه للدنيا وذلك بقوله :

تَنادوا فَقالوا أَردَتِ الخَيلُ فارِساً ∴ فَقُلتُ أَعَبدُ اللَهِ ذَلِكُمُ الرَدي

فَإِن يَكُ عَبدُ اللَهِ خَلّى مَكانَهُ ∴ فَما كانَ وَقّافاً وَلا طائِشَ اليَدِ

وهذه تتلاقى مع ما ذكره في المقدمة من ذهاب زوجه وانقطاع وصلها وعدم عودتها إليه مرة أخرى .. ولذلك فإن الافتتاح بقوله : " أرث جديد الحبل " يحمل قدرا كبيرا من مضمون القصيدة وغرضها .. ثم هو متصل بحال أخيه أيضا، فقد انقطع ما بينهما ولم يعد له رجاء وأمل في الرجوع إليه بعد أن أردته الخيل وطوحت به الأحداث في عالم آخر..[1]

وإذا كان دريد قد ذكر أن أخاه ترك مكانه وذهب لسبيله، فإن نفسه لا تزال متعلقة به، ذاكرة له، وهذا ما يدل عليه التقييد بـ " إن " إذ مقتضى الظاهر التقييد بـ " إذا " لأنه يعلم يقينا ما آل إليه أخوه وانتهى إليه أمره، و" إن " تستعمل في الأمر المشكوك فيه، ولعل السبب في ذلك أنه إنما أتى به على سبيل الفرض والتقدير، لتقدير أشد الأحوال وأقساها في نفسه وهو ذهاب أخيه لسبيله وتركه الدنيا .. فهذا ليس نهاية الأمر والشأن؛ لأنه يعلم أن المرء غير مخلد، كما نص هو على ذلك صراحة في قوله :

قِتالُ اِمرِئٍ آسى أَخاهُ بِنَفسِهِ ∴ وَيَعلَمُ أَنَّ المَرءَ غَيرَ مُخَلَّدِ

ولكن المهم عنده هو اتصاف أخيه بصفات تخلده في الحياة وهو ميت تحت التراب ؛ ولهذا عدد صفاته، وكرر وأعاد في بيان مآثره ؛ ليدل على أن تلك الصفات التي تركها أخوه هي عوض عنه، وأنها عمر ثان له.. ولذلك فإن المقصود بقوله " خلى مكانه " مضى لسبيله [2] وترك مكانه في الدنيا، وذلك مستعمل في مفارقة الجسوم والذوات، وكأنه يشير إلى أن الذي مضى هو ذاته وليس صفاته وذكره، ألا ترى كيف ذكر صفاته وعدد مآثره ليشير إلى بقائه بصفاته بينهم ..؟[3]

---

(١) ينظر : دالية دريد ٢٨٢ .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨١٨ .

(٣) ينظر : دالية دريد ٣٤١ ، ٣٤٢ بتصرف يسير .

وهذا أيضا يتلاقى مع ما ذكره عن أم معبد، فهي وإن كانت قد بانت وذهبت وتركته وأنه لا عودة لها .. فإنها مع ذلك لا تزال في ذاكرته، ولا تزال نفسه متعلقة بها ؛ ولهذا ذكرها بصفات الحسن والجمال في قوله : " من الخفرات لا سقوطا خمارها.... " بل إن نظره ظل متابعا لها ولرحلها الذي ذهبت فيه،كما يظهر من قوله :

كَأَنَّ حُمولَ الحَيِّ إذ مَتَعَ الضُحى ∴ بناصِيَةِ الشَحناءِ عُصبَةُ مِذوَدِ

أَوِ الأَثأَبُ العُمُّ المُخَرَّمُ سوقُهُ ∴ بَدَاءَةَ لَم يُخبَط وَلَم يَتَعَضَّدِ

ظَواعِنُ عن خُرجِ النُمَيرَةِ غُدوَةً ∴ دوافِعُ في ذاكَ الخَليطِ المُصَعِّدِ

وهذا يدل يقينا على أنه ما زال متعلقا بها محبا لها ..

إلى غير ذلك من التلاقي والتلاؤم بين مقدمة النسيب وصفات أخيه كما سيتضح بعد قليل..

هذا فضلا عن أن تعدد الغرض في القصيدة، وتنوع المعاني المذكورة في الرثاء من تفصيل أحواله وأحوال أخيه .. يتلاءم ويتلاقى مع تعدد المعاني المذكورة في النسيب وتنوعها، وتفصيل حال زوجه معه، وحاله معها .. وبذلك يتلاءم ويتلاقى الغرض المراد في كل من النسيب والرثاء...

وإذا كانت مقدمة النسيب وما فيها من تعدد المعاني وتفصيل الأحوال يتلاءم ويتلاقى مع غرض الرثاء في القصيدة وما فيه من تعدد وتنوع المعاني = فإن أسلوب التعبير في كل من مقدمة النسيب والرثاء يظهر فيهما التلاؤم والتناسب، ومن ذلك :

- أنه بنى مقدمة النسيب على الإخبار عن زوجه " أرث جديد الحبل، وأخلفت كل موعد، وبانت، لم ترج، من الخفرات .." وكذا أسلوبه في الحديث عن نفسه أو عن أخيه قائم على الإخبار " قلت لعارض، أمرهم أمري، وما أنا إلا من غزية، وكنتُ كذات البو، فطاعنتُ، كميش الإزار، رئيس حروب،صبور على رزء المصائب ..."
- أنه في الجملة الخبرية في مقدمة النسيب وفي ذكر صفاته وصفات أخيه أكثرها مطلق عن التأكيد، وكأنه يحكي حقائق مسلمة لا شك فيها ولا إنكار ..
- أن أسلوب الشاعر في مقدمة النسيب هنا قائم على الذكر والتفصيل، يظهر هذا بداية من تصريحه باسم زوجه (أم معبد) في حين أنه لم يصرح بها في رثاء معاوية بن عمرو، وإنما

ذكرها بضمير الغيبة " ألا بكرت تلوم " .

كما أن التفصيل يظهر جليا في ذكره لأحواله معها وتعداده لصفاتها سواء قبل رحيلها وفراقها، وبيانه لما فيها من صفات الحسن والجمال، ووصف حاله معها وملاقاته كل تباريح الحب، ووصفه لموكبها التي رحلت عليه .. أو بيان صفاتها بعد رحيلها وفراقها من بينونة وعدم رجعة ...

كل هذه التفاصيل وذكر الأحوال المختلفة يتلاءم مع التفصيل وذكر الأحوال المختلفة والمواقف المتعددة له ولأخيه، سواء في تفصيل كيفية مدافعته عن أخيه وعدم تخليه عنه .. أو في تفصيل صفات أخيه وتعدادها...

فانظر كيف إن بناء الأسلوب في مقدمة النسيب يتلاءم مع بناء الأسلوب في الرثاء، وأن الأسلوب في الموضعين يحقق الغرض المراد عند الشاعر.

أما القصيدة الثانية فإن الغرض الرئيس فهيا بيان وقع المصيبة التي حلت به بموت معاوية بن عمرو بن الشريد، وأثر ذلك في نفسه، وارتباط ذلك بما كان عليه الشاعر من صفات النجدة، وعدم التهرب من تحمل المسؤولية ...

وبيان صفات معاوية بن عمرو من قوة وسرعة نجدة لمن يناديه ليلا أو نهارا، ووصف قبره، والمكان الذي يقع فيه القبر، وهذا الغرض مبني على الغرض الأول ؛ إذ إنه يقصد من ذكره لهذه الأشياء إظهار عذره في حزنه على موت معاوية وتأثر نفسه بوفاته ؛ ولذلك بعد أن ذكر صفات معاوية رجع مرة أخرى إلى بيان وقع موت معاوية عليه، وبيان أنه لا يهرب من تحمل المسؤولية ولا يمكر بصاحبه مثل الثعلب الذي يدس رأسه في التراب، وهذا ما جاء في البيتين الثالث عشر والرابع عشر من قوله :

فَعَزَّ عَلَيَّ هُلكُكَ يا بنَ عَمروٍ ∴ وَما لي عَنكَ مِن عَزمٍ وَصَبرِ

وَلَستُ بِثَعلَبٍ إِن كانَ كَونٌ ∴ يَدُسُّ بِرَأسِهِ في كُلِّ جُحرِ

ثم ذكر بعد ذلك صفاته من قوة واقتحام الصعاب من غير خوف أو تأخر أو تردد، وهذا لا يخرج عن سياق القصيدة؛ لأن حزنه على موت معاوية من باب اقتحام الصعاب التي يهرب منها بعض الأصحاب، ولكنه لا يهرب من هذا .. وربما يكون هذا من باب التعليل لحزنه، وأن حزنه على صاحبه له ما يبرره من صفات نفسه..

ومقدمة النسيب هنا ليست حديثا عن المرأة وحسنها وجمالها ووصلها والتمتع بها.. وإنما تدور حول المبادرة بسرعة لوم هذه المرأة له لوما كبيرا على حزنه الشديد على معاوية بن عمرو وأثر ذلك على نفسه ونفسها .. وهذا مما يتلاءم مع معاني الرثاء بصفة عامة، ومعاني الرثاء المبثوثة في هذه القصيدة بصفة خاصة..

والمرأة التي لم يصرح الشاعر بها هنا ذكر صاحب خزانة الأدب أنها امرأته وذلك بقوله : " قوله: ألا بكرت ... إلخ، فاعله ضمير امرأته"[1] ومما يرجح هذا أن امرأته كانت قد لامته قبل ذلك وعذلته في حزنه على أخيه عبد الله، كما سبق بيان ذلك في القصيدة الدالية " أرث جديد الحبل من أم معبد .." فكونها لامته على حزنه على أخيه فمن باب أولى أن تلومه على حزنه على غير أخيه..

ومقدمة النسيب هنا تتلاقى وتتلاءم مع غرض القصيدة تلاقيا ظاهرا؛ لأن غرض القصيدة الرئيس يقوم على بيان أثر موت معاوية على نفس الشاعر، وظهور هذا الأثر على نفسه طهورا بينا، مما جعل زوجه تلومه على هذا الحزن، وقد ظهر أثر لومها له على نفسه، كما ظهر أثر موت معاوية على نفسه..

كما أن هذه المقدمة تتلاءم مع بيان صفات معاوية ؛ إذ إن بيان هذه الصفات كان من الأسباب التي جعلته يحزن كثيرا على موت معاوية ؛ وعلى هذا يكون هذا الغرض مبنيا على الغرض السابق.. كما أنها تتلاءم مع الصفات التي ذكرها الشاعر في الرثاء، سواء ما ذكره من صفات للمرثي أو صفات نفسه كما سيتضح بعد قليل في الحديث عن التلائم بين الصفات المذكورة في الغزل والصفات المذكورة في الرثاء ..

كما أن مقدمة النسيب في القصيد الثالثة يتلاءم مع الغرض المقصود منها ؛ إذ الغرض الرئيس منها بيان صفات أخيه المرثي (خالد) من العفاف، والعطاء، والكرم والجود، واللين والصفح للعشيرة، وأن مجلسه خير المجالس ... ثم انتقل من ذلك إلى بيان صفاته في وقت الشدة والحروب فوصف سلاحه الذي يلبسه في الحروب من دروع وغيرها... ولذلك استحق أن يكون بهاء لأقاربه، بينما هو مفسد لنفوس أعدائه... كما وصفه بحدة البصر وأنه لا ينام كثيرا في الليل، وإنما هو يسير في الليل، بل ويسبق في سيره ليلا كل مسرع ..

وكل هذه المعاني لم يذكرها الشاعر من أجل الافتخار أو التغني بها.. وإنما يقصد من ذكرها

---

(١) خزانة الأدب ٤ / ٤٤٤ لعبد القادر البغدادي طبعة بولاق ١٢٩٩هـ .

شيئا آخر وهو تأكيد حزنه على أخيه، وألمه لفقده وفراقه ؛ لأن من كان بهذه الصفات يستحق أن يُحزن عليه كثيرا، وأن لا يُنسى أبدا، وأن المصيبة فيه كبيرة، وكأنها وقعت عليه فشدخت رأسه وقصمت ظهره ..

وبناء على ذلك فإن مقدمة النسيب هنا تلائم هذا الغرض وتتلاقى معه تلاقيا ظاهرا ؛ إذ هو في مقدمة النسيب لم يذكر الحسن والجمال والوصال، وإنما اختار اسما له صلة بالحزن والهم والأسى وهو (أميمة) وأنه اختارها ليبني على حديثه معها ما أراد أن يثبته من صفات أخيه، وأن هذه المرأة لن ترى في حياتها مثل أخيه، فيستوي عندها البقاء في نجد أو الذهاب إلى تهامة وما يلي اليمن، فالمتوَفّى لا نظير له في شرق البلاد وغربها ...

والملاحظ هنا أنه لم يتحدث عن مقتله، ولا عمن قتله، كما أنه لم يذكر موقفه من موت أخيه كما ذكر ذلك في قصيدة " أرث جديد الحبل .." في رثاء أخيه عبد الله، كما أنه لم يذكر أثر موت أخيه خالد في نفسه كما فعل في رثاء معاوية بن عمرو في قصيدة " ألا بكرت تلوم بغير قدر.."

ولذلك لم يذكر هنا في مقدمة النسيب التضحية بها والفراق لها كما فعل في قصيدة " أرث جديد الحبل .." كما أنه لم يذكر لومها له وأثر ذلك في نفسه كما فعل في قصيدة " ألا بكرت تلوم بغير قدر "

فانظر كيف اختلفت مقدمة النسيب هنا عنها في القصيدتين السابقتين، وذلك بناء على اختلاف الغرض من القصيدة في كل موضع، فجاءت مقدمة النسيب متلائمة مع كل غرض، بحيث لا يصح أن يوضع أي من هذه المقدمات الغزلية في موضع الآخر.

ومع أن مقدمة النسيب هنا تناسب الغرض من القصيدة وتتلاءم معه فهي أيضا تتلاءم في حجمها مع طول القصيدة ؛ إن مقدمة النسيب هنا لم تتجاوز البيتين ؛ لأن القصيدة نفسها لا تتجاوز ثمانية أبيات .

وكذا أيضا حجم كل مقدمة عند دريد تناسب طول القصيدة، فحينما طالت مقدمة النسيب في القصيد الأولى فبلغت عشرة أبيات نظرا لأن أبيات القصيدة قارب الخمسين بيتا، في حين أن مقدمة النسيب في قصيدة " ألا بكرت تلوم بغير قدر" بلغت خمسة أبيات ؛ وذلك لأن أبيات القصيدة لم يتجاوز ستة عشر بيتا .

المبحث الثاني

التلاؤم بين المعاني المبثوثة في مقدمة النسيب ومعاني الرثاء في القصيدة

المعروف أن الرثاء يشتمل على إظهار الحزن والأسى لفراق المرثي، وبيان الأثر الذي خلفه المرثي في نفس الشاعر، وفي الأشياء المحيطة به، إلى جانب ذكر مآثر المرثي وصفاته الحسنة التي كان يتصف بها ... إلى غير ذلك مما يشتمل عليه الرثاء مما هو معروف ومقرر لدى العلماء ..

والذي ينعم النظر في أبيات النسيب عند دريد وما اشتملت عليه من ذكر المرأة في مقدمة الرثاء يجد أنها تتلاءم أشد الملاءمة مع سياق الرثاء في هذه القصائد ؛ إذ المعاني المبثوثة في هذه الأبيات لا تخرج عن معاني الرثاء في هذه القصائد، وذلك يظهر جليا باستعراض المعاني التي اشتملت عليها هذه الأبيات .

فقد بدأ دريد حديثه في القصيدة الأولى بقوله " أرث جديد الحبل " و " رث " و " أرث " بمعنى خلق وبلي ، والرث : البالي من كل شيء[1] والكلام يحتمل أن يكون خبرا وأن يكون إنشاء بناء على دخول همزة الاستفهام على " رث" [2].

وإذا كان الكلام على الخبر فيكون الغرض منه إظهار التشفي منها جزاء قولها في أخيه ..

وقد يكون في الخبر معنى التفرد والوحدة التي عاشها دريد بعد أخيه، فلم يرض بغيره بديلا يحمد جواره ..

وعلى الإنشاء فالاستفهام يحمل معاني متعددة، ففيه دليل على توزع نفسه وتشتت قلبه ؛ إذ الوصل جديد والعهد حادث، ومع هذا فقد أخلق ورث وحدث ما حدث ..

كذلك ترى في الاستفهام نوع استبطاء بينها، وتمني فراقها ؛ إذ لم يحمدها ولم توف معه، بل أخلفته كل موعد .. وبذلك يظهر التلاؤم بين كل هذه المعاني وبين معاني الرثاء [3].

والأسلوب هنا يدل على انقضاء العهد، ورحيل زوجه، وعدم بقائها معه .. وهذا

---

(١) ينظر : لسان العرب (رثث).

(٢) ينظر :لسان العرب ، تاج العروس (رثث) .

(٣) ينظر : دالية دريد ٢٨١ ، ٢٨٢ .

الأسلوب يقابله التعبير عن رحيل أخيه عنه، وعدم بقائه معه، وتركه لمكانه فارغا .. وذلك يظهر من قوله : " وإن يك عبد الله خلى مكانه " فانظر كيف تلاقت الأساليب لتعبر عن معنى واحد يشيع في القصيدة وهو فراق الأحبة له، وعدم بقائهم معه ...

واستعمال " الحبل" في الوصل والعهد استعارة تصريحية، وقوله "أرث" و "جديد " ترشيح للاستعارة على ما هو بين.. وفضل بناء الكلام على الاستعارة فلم يقل مثلا : قطعت وصلها، أو انقضى عهدها.. وما شاكل ذلك هو الدلالة على قوة الصلة – قديما – ومتانة عهدها، واتصال المودة .. كل هذا قد أرث وبلي وانقطع ومضى عند ذكرها لأخيه بما يسوءه ويحزنه .. بما يدل من وجه آخر على تعظيم قدر أخيه عنده، وجلالة شأنه لديه ..

وترشيح الاستعارة بقوله : " أرث " وهو من مستلزمات " الحبل" وخصائصه فيه تأكيد البلى وانقضاء العهد، وعدم الرجوع إليه مرة ثانية.[1]

وبذلك فإن هذا المطلع وبناءه على هذا النظم وما فيه من معاني البلى والانقطاع والفراق .. يتلاقى ويتناغى سياق الرثاء وما يشتمل عليه الرثاء من معاني الحزن والفراق والانقطاع مما هو ظاهر في ثنايا هذه القصيدة..

واستخدام الحبل في العلاقة التي كانت قائمة بينه وبين زوجه، مع ذكر صفات زوجه بهذا الأسلوب الذي يدل على قوة الصلة بينهما يتلاءم ويتلاقى مع الأساليب التي ذكرها في الحديث عن نفسه أو عن المرثي، مما يدل على متانة الصلة بينهما وقوتها، ومن ذلك قوله :

فَلَمّا عَصونِي كُنتُ مِنهُم وَقَد أَرى ∴ غِوايَتَهُم وَأَنَّني غَيرُ مُهتَدي

وَما أَنا إِلّا مِن غَزِيَّةَ إِن غَوَت ∴ غَوَيتُ وَإِن تَرشُد غَزِيَّةُ أَرشَدِ

فانظر إلى هذه العصبية بالنسبة لقومه، وأنه منهم ومعهم في كل حالاتهم من الغي والرشد، والضلال والهدى، لا يفارقهم ولا يتخلف عنهم.. وانظر إلى قوله : " كنت منهم " ودلالته على بقائه فيهم، وعدم تركه لهم مع عصيانهم له ...

---

(١) السابق ٢٨٢ .

إذا كانت هذه حاله وعصبيته وتحزبه لقبيلته، فكيف بحاله مع أخيه؟! ولذلك أكد على هذه العلاقة القوية بينه وبين أخيه بقوله :

دَعاني أَخي وَالخَيلُ بَيني وَبَينَهُ ∴ فَلَمّا دَعاني لَم يَجِدني بِقُعدَدِ

أَخي أَرضَعَتني أُمُّهُ بِلِبانِها ∴ بِثَدي صَفاءٍ بَينَنا لَم يُجَدَّدِ

فانظر كيف إن أساليب مقدمة النسيب تتلاقى وتتلاءم مع أساليب الرثاء في الدلالة على المعاني المشتركة بين الجانبين، مما يدل على أن مقدمة النسيب لا تنافر معاني الرثاء، بل هي تتلاءم معها أشد الملاءمة ..

كما أنه صرح هنا بذكر " أم معبد " وأنها هي التي بلي عهدها وانقطع حبلها وانقضى وصلها .. وذلك لما لها من صلة وثيقة برثاء أخيه كما بينتُ ذلك فيما سبق ..

وعطف جملة " وأخلفت كل موعد " على سابقتها يدل على الترقي في البينونة والانقطاع ؛ إذ جمع لها بين رثاثة الحبل وإخلاف الموعد .[1]

وهكذا إذا تتبعت مطلع قصيدة دريد في مقدمة رثائه لأخيه عبد الله وبناءه ونظمه وما اشتمل عليه من معان وجدت كل ذلك متلاقيا أشد التلاقي مع معاني الرثاء في هذه القصيدة..

ثم يأتي البيت الثاني وهو تأكيد للمعاني المذكورة في البيت الأول، وقد بدأه بقوله : وبانت " وهو خبر آخر عنها يزيد المعنى السابق ظهورا، ألا ترى أن بينها من جنس ما سبق الإخبار عنها ؟ ولهذا عطف بالواو – هنا – لأنه أراد أن يجمع لها بين خلف الوعد والبعد .. وكلا الأمرين مما يبعدها عن نفسه، ولا يبقى لها في قلبه ودّا..

وترى الأخبار السابقة هادئة، فلم تؤكد مع أنها أمر عظيم، وما ذاك إلا لإرادة ظهور الأمر واشتهاره، وأنه صار معلوما لدى المتلقي ..

والعطف في قوله " ولم ترج فينا ردة اليوم أو غد " من قبيل الترقي في البين ؛ لأن كل بين على أمل اللقاء والعودة بعد ذلك، فإذا كان من غير عودة فهو أعلى من سابقه .. ولهذا نص على نفي رجاء العود إليها بعد ذلك، دلالة على المبالغة في كره جوارها، وتأثره بما ذكرته عن أخيه .

---

(١) السابق ٢٨٣ .

و " اليوم " و" غد " – هنا – لا يقصد بهما يوما معينا أو غدا محدودا وإنما هما في معنى الحال وما يستقبل من الزمان، دلالة على التأبيد في الحكم وعدم تخلفه في جزء من أجزاء الزمن [1].

وكونها بانت وانقطع وصلها وأنه لا رجعة لها أبدا .. كل هذه المعاني هي معاني الرثاء المذكورة في هذه القصيدة من انقطاع الوصل بأخيه وعدم التلاقي أو رجوع وصله أبدا؛ لأنه رحل عنه وغيبه اللحد في باطن الأرض ..

كما أن المعاني المذكورة في مقدمة النسيب في القصيدة الثانية لا تخرج عن معاني الرثاء في القصيدة ؛ إذ لم يذكر في مقدمة هذه القصيدة إلا لوم هذه المرأة له على جزعه على المرثي، وأنها بالغت في عذله ولومه .. وأنها إذا لم تترك هذا العذل وهذا اللوم فإن نفسها سوف تلومها على فعلها هذا .. كما أنه ذكر الرزء في النفس أو المال وأثر ذلك على النفس، وأن النفس حينئذ ليس لها إلا أن تجزع أو تصبر، وأن الجزع لا يفيدها في شيء، أما الصبر فهو الأولى والأجمل ... وكل هذه المعاني تتلاءم مع الرثاء وتتلاقى معه تلاقيا ظاهرا، هذا فضلا عن أنه في القصيدة الثانية بين أثر موت معاوية على نفسه، وأنه حزن لفراقه حزنا شديدا لا يستطيع معه أن يصبر أو أن يخفي حزنه وجزعه حتى عرضه ذلك للوم من قبل زوجه..

وانظر إلى الأسلوب في مقدمة النسيب كيف إنه يتلاءم مع الأساليب التي تعبر عن المعاني القريبة منه في الرثاء ...

فمثلا قوله : " فقد أحفيتني ودخلت ستري" الأسلوب هنا يدل على أن لومها له ليس لوما ظاهرا فقط، وإنما هو لوم اقتحم عليه نفسه وخلوته بحيث لا يستطيع الفكاك منه ..

وهذا الأسلوب يتلاءم مع الأساليب التي تبين كيف إن موت معاوية دخل عليه في خلوته واقتحم عليه نفسه بحيث لا يستطيع أن يرده كما هو واضح من قوله :

وإنَّ الرُزءَ يَومَ وَقَفتُ أَدعو ∴ فَلَم أَسمَع مُعاوِيَةَ بنَ عَمروِ

رَأَيتُ مَكانَهُ فَعَرَضتُ بَدءا ∴ وَأَيُّ مَقيلِ رُزْءٍ يا اِبنَ بَكرِ

---

(١) دالية دريد ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

فانظر إلى قوله : " وأي مقيل رزء يا ابن بكر " وبناء الكلام على الاستفهام المراد به النفي، وخطابه لنفسه يا ابن بكر، فبكر جده [1]، فهذا الأسلوب فيه من الدلالة على شدة حزنه وتمكن الحزن منه حتى لا يستطيع له ردا .. وهذا يتلاقى مع بيان حزنه من لوم زوجه له على هذا الجزع وهذا الحزن ..

وانظر إلى تعبيره في خطاب زوجه :

فقَد كَذَبَتكِ نَفسُكِ فَاكذِبيها ∴ فَإن جَزَعٌ وَإن إجمالَ صَبرِ

ودلالة هذا الأسلوب على الجزع ومحاولة التصبر مع عدم القدرة عليه مع أنه أولى وأجمل.. وهذا يتلاقى مع قوله :

فعَزَّ عَلَيَّ هُلكُكَ يا بنَ عَمروٍ ∴ وَما لي عَنكَ مِن عَزمٍ وَصَبرِ

ودلالة هذا الأسلوب على عدم قدرته على صبره على هذا الفراق، وكبح جماح نفسه حتى لا يظهر عليها الحزن والأسى ..

كما أن المعاني المذكورة في مقدمة النسيب في القصيدة الثالثة تتلاءم مع معاني الرثاء في هذه القصيدة، خاصة وأنه ذكر هنا الرزء وتجشم المكاره، وكيف إنه طلب من زوجه أن تتجشم هذه المكاره وتشد عليها ضلوعها، وتبتئس أشد البؤس ؛ لأنها لن ترى أبدا مثل المتوفى سواء في نجد أو تهامة ... ولذلك فإنه يظهر عليه الحزن والأسى والهم منذ أن نطق بأول كلمة في القصيدة (أميم) ؛ وذلك لأنه لجأ إلى الحذف فحذف حرف النداء، كما حذف آخر المنادى، فأتى بالمنادى مرخما ؛ إذ أصل الكلام : يا أميمة، والحذف هنا يلائم ويلاقي الرثاء ؛ إذ إن من دواعي الحذف الحزن والأسى، فالحزين يكون ممتلئ النفس، متوتر الحس .. وتلك حال تقتضي الحذف، وتدعو إلى طي الكلمات وإيجاز القول ؛ لأن نفسه حينئذ لا تطاوعه في الاسترسال في الحديث أو الإطالة في الكلام..

كل هذه المعاني تتلاءم وتتلاقى مع معاني الرثاء التي ذكرها الشاعر في هذه القصيدة من حزن وألم على أخيه صاحب الصفات الحسنة التي تفرد بها والتي يستحق معها أن يكون بكاء لأقاربه مدة حياته، وبذلك فهو ممن يحزن عليه الدهر ...

---

(١) ينظر : خزانة الأدب ٤ / ٤٤٤ .

المبحث الثالث

التلاؤم بين الصفات المذكورة في النسيب والصفات التي المذكورة في الرثاء

الذي ينعم النظر في الصفات التي ذكرها دريد في مقدمة النسيب والصفات التي ذكرها للمرثي يجد أن بينهما تلاؤما وتلاقيا في كثير من الوجوه، فمثلا في القصيدة الأولى الذي ينظر في الصفات التي ذكرها لزوجه أم معبد والصفات لأخيه عبد الله يجد أنها متلائمة أشد الملاءمة، فقد ذكر في مستهل مقدمة النسيب من صفات زوجه أنها بانت وتركته، وأنها لا عودة لها .. وهذه نفس معاني الصفات التي ذكرها في مستهل صفات أخيه من أنه رحل وخلى مكانه، وأنه لا سبيل إلى عودته بعد ذلك، كما ذكرت ذلك فيما سبق .

كما أنه ذكر في صفات زوجه ما يدل على حبه لها وتعلقه بها فمع أنها رحلت عنه وفارقته .. إلا أن نفسه ظلت متعلقة بها، وأن صفاتها الحسنة ما زالت قائمة عنده لم تفارقه .. وكذا بالنسبة لأخيه عبد الله، فمع رحيله إلا أن صفاته ما زالت حية باقية في نفس دريد ؛ ولذا ظل يذكر هذه الصافات ويكررها..

كذلك تجد التلاؤم بين الحديث عن أم معبد بضمير الغيبة " أخلفت، بانت، جوارها، ترج فينا، خمارها، برزت .. " والحديث عن أخيه أيضا بضمير الغيبة " فما كان وقافا، كميش الإزار، خارج نصف ساقه، صبور، طلاع، رئيس حروب، لا يزال ربيئةً، وإن مسه الإقواء .." وما ذاك إلا لأن كلا منهما رحل عنه، وتغيب عنه، بعد أن كان حاضرا ملء العين .. فزوجه رحلت عنه بعد طلاقها وبينونتها منه، وكذا أخوه رحل عنه وغيبه اللحد، وعلى ذلك يكون استعمال ضمير الغيبة تعبير عن الواقع الفعلي في الموضعين ..

كما أن طريقة بناء النظم في ذكر صفات زوجه يتلاءم مع طريقة بناء النظم في ذكر صفات أخيه .. فمثلا ذكر من صفات زوجه في جانب الحسن وإظهار الجمال والعفة قوله : " من الخفرات ...." فبعد أن وصفها بالحياء نفى عنها طرفي النقيض، فنفى عنها التبذل والخروج لغير حاجة، ونفى عنها عدم الخروج أصلا، فنفى عنها طرفين فيهما قبح وذم، وأثبت لها صفة وسطا فيها حسن ومدح ..

وهذه نفس الطريقة التي اتبعها في إثبات صفات أخيه، وهذا واضح من قوله :

فَإن يَـكُ عَبدُ اللَه خَـلّى مَكـانَهُ ∴ فَما كانَ وَقّافاً وَلا طائِشَ اليَدِ

انظر إلى قوله : " فما كان وقافا ولا طائش اليد " وكيف إنه نفى عنه طرفين فيهما قبح وذم، فلا هو قاعد عن الحروب جبان، ولا هو أهوج متعجل لا يقدر الأمور حق قدرها، وهذا يدل على إثبات الوسطية التي فيها حسن ومدح ..

فانظر كيف إن طريقته في ذكر صفات زوجه لم تختلف عن طريقته في ذكر صفات أخيه، بل إن ترتيبه لصفات زوجه لا يختلف عن ترتيبه لصفات أخيه، فبعد أن ذكر من صفات زوجه الرحيل والفراق ذكر لها صفات الحسن والجمال، وبدأ صفات الحسن بهذا الأسلوب .. وهذا نفس ما فعله في ذكر صفات أخيه، فبعد أن ذكر رحيله وفراقه (خلى مكانه) ذكر له من صفات الحسن والمدح، وبدأ أيضا بنفس الطريقة التي بدأ بها في عرض صفات زوجه..

كما أنه في حديثه عن زوجه وبيان صفات حسنها وجمالها، وإظهار مدى حبه لها .. لم ينس أن يصف لنا موكبها التي رحلت فيه، وقد أطال في وصف هذا الموكب حيث استغرق ثلاثة أبيات كاملة على هذا النحو :

كَـأَنَّ حُمـولَ الحَـيِّ إذ مَتَـعَ الـضُحى ∴ بِناصِـيَةِ الـشَحناءِ عُـصبَةُ مِـذوَدِ

أَوِ الأَثـأَبُ الـعُـمُّ الـمُـخَـرَّمُ سـوقُـهُ ∴ بَـدَاءَةَ لَـم يُخـبَط وَلَـم يَتَعَـضَّدِ

ظَـوَاعِـنُ عـن خُـرْجِ النُمَيْـرَةِ غُـدْوَةً ∴ دوافِـعُ في ذاكَ الخَلِـيطِ المُـصَعِّدِ

وذكره لهذا الموكب بهذه الصورة مع دلالته على إظهار حبه لها وتعلق قلبه بها .. مع دلالته على ذلك إلا أنه يدلنا من طرف خفي أن هذا الموكب كان فيه رحيل الأحبة وتركهم له، وهذا يتلاءم مع ذكره لموكب الأعداء وهجومهم على أخيه وقتلهم له في قوله :

وَقُلتُ لَهُم إنَّ الأَحاليفَ أَصبَحَت ∴ مُـطَـنَّـبَةً بَـينَ الستارِ فَنَهـمَـدِ

فَما فَتِئوا حَتّـى رَأَوهـا مُغـيرَةً ∴ كَرِجلِ الدبى في كُـلِّ رَبـعٍ وَفَدفَـدِ

وَلَمّا رَأَيتُ الخَيــلَ قُــبلاً كَأَنَّهــا ∴ جَرادٌ يُباري وِجهَةَ الــريحِ مُغتَــدي[1]

وكأن الموكب في الجانبين هو سبب فراق الأحبة له ورحيلهم عنه..

هذا فضلا عن أن حديثه عن الموكب التي رحلت فيها زوجه ولغته في التعبير لم تخرج عــن لغة الحديث عن الحروب وإظهار الشدة، انظر إلى قوله : " شحناء، عصبة مزود، يخبط، يتعــضد " فهذه الكلمات ليست بعيدة عن جو الحرب والقتال .

كما أن الذي ينعم النظر في القصيدة الثانية ويتأمل الصفات التي ذكرها الشاعر في مقدمة النسيب يجد أنها تتلاءم مع الصفات التي ذكرها لمعاوية بن عمرو .. فمثلا ذكر من صفاتها السرعة. وذكر من صفات معاوية السرعة، ولكن متعلق السرعة يختلف بينهما .. فهي تسرع في لومه وعذله في حزنه .. وهذا ملائم لطبيعة المرأة من جهة، وملائم لطبيعة زوجه معه من جهة أخرى ... بينمــا معاوية يسرع لنجدة الملهوف ونصرة الضعيف، وأنه لا يثنيه عن ذلك ظلمة الليل ؛ بل إنه يسرع إلى فعل هذه المكرمات في الليل قبل النهار، وهذا ظاهر من قوله :

وَلَــو أَسمَعتَــهُ لَــأَتى حثيثــاً ∴ سَريعَ السَعيِ أَو لَأَتاكَ يَجــري

وهذا فيه من المدح والثناء لمعاوية ما فيه ..

كما أنه وصفها بالسفه في قوله :

فَإِن لَم تَترُكي عَــذلي سَــفاهاً ∴ تَلُمكِ عَلَيَّ نَفسُكِ أَيَّ عَــصرِ

والسفه يعنى به نقص في العقل وضعف في الرأي .. ولو أن لها عقلا راجحا لما لامتــه أو عذلته في حزنه على موت معاوية .. بينما وصف معاوية بما يدل على اكتمال العقل، وذلك بقوله:

بِشِكَّةِ حــازِمٍ لا عَيــبَ فيــهِ ∴ إِذا لَبِسَ الكُماةُ جُلــودَ نَمــرِ

أي لأسرع إلى نصرة الضعيف بسلاح حازم، أي متيقظ لا مطعن فيه، والسلاح لا يوصف بالحزم والتيقظ، وإنما يوصف بذلك من يحمل السلاح، فيكون إضافة الحزم إلى السلاح من بــاب المجاز العقلي، والمجاز هنا فيه من المبالغة ما فيه ؛ إذ يوحي بأن السلاح نفسه قد سرى إليــه القــوة والتيقظ من صاحبه حتى سار السلاح نفسه هو الذي يوصف بهذه الصفات..

---

(١) مطنبة : مخيمة ، الستار وثهمد : جبلان ، رجل الدبى : القطعة العظيمة من الجراد ، الفدفد : الفلاة .

وكون معاوية متيقظا لا مطعن فيه يدل على اكتمال عقله وسداد رأيه، عكس ما ذكره من صفات في مقدمة النسيب ..

كما أن ما ذكره في مقدمة النسيب يتلاءم ويتلاقى مع ما ذكره من صفات نفسه، فقد ذكر في مقدمة النسيب أنها لامته لوما كبيرا جدا لا حد له، وأنها نازعته في ذلك حتى بلغت جهدها في هذه المنازعة فاقتحمت عليه خلوته وبالغت في لومه ؛ ولذلك أثر هذا في نفسه تأثيرا عظيما ..

وهذا يتلاءم ويتلاقى مع مصيبته بموت معاوية، وكأن هذه المصيبة اقتحمت عليه نفسه وخلوته فأثرت فيه تأثيرا عظيما حتى ظهر عليه هذا التأثير ظهورا بينا مما أدى إلى أن تلومه على مدى هذا التأثر ..

كما أنه ذكر من صفاتها أن نفسها ستلومها إذا لم تترك عذله لوما مدى الدهر بحيث لا تتخلص منه أبدا، وهذا واضح من قوله :

فَإن لَم تَترُكي عَـذلي سَـفاهاً ∴ تَلُمكِ عَلَيَّ نَفسُكِ أَيَّ عَـصرِ

ولذلك جاء في تفسير قوله : " تلمك عليّ نفسُك أي عصر" أي كنى بذلك عن دهر طويل، يريد تلومك نفسك بسببي عصرا طويلا [1] وهذا يلائم الرثاء من جهة، ومن جهة أخرى يلائم وضع الأشجار الخضراء على القبر طول الدهر في قوله :

إلى إِرَمٍ وَأَحجـارٍ وَصـيرٍ ∴ وَأَغصانٍ مِنَ السَلَماتِ سُـمرِ

وهذا يوحي بحزنه الشديد على معاوية، وأنه سيظل يذكره طول الدهر، وأنه لن ينساه أبدا، بل سيظل يضع على قبره هذه السلمات الخضر، وهذا يدل على أن قبره جديد، والحزن عليه شديد ؛ لأن العادة جرت عند العرب بأن وضع الأشجار الخضراء على القبر يكون في بداية الموت وقرب العهد بالميت ..

أما في القصيدة الثالثة فنجد أن دريدا لم يذكر شيئا في صفات المرأة في مقدمة النسيب سوى طلبه منها أن تتجشم الرزء والمصيبة على كره ومشقة، وأن تشد عليها بين ضلوعها ؛ لأنها لن ترى مثل الميت في حياتها... والتقليل من الصفات هنا يتلاقى مع ما هو فيه من شدة حزن

---

١ - ينظر : رغبة الآمل ٣ / ١٥٦ ، خزانة الأدب ٤ / ١٢٩ .

وأسى، كما يظهر من طيه للكلمات وإكثاره من الإيجاز الذي يظهر من بداية القصيدة ؛ حيث حذف حرف النداء ورخم المنادى في قوله : " أميم " كما سيتضح بعد قليل ..

كما أنه ذكر في حديثه أنها لن ترى في حياتها وفي أي مكان مثل المرثي، مما يدل على أنه متفرد في صفاته ولا يوجد له نظير، ولذلك آثر التعبير بـ " مثل " دون شبه أو الكاف ونحوها ؛ إذ المثل يدل على المشابهة من جميع الوجوه في الصفات والذات، بخلاف الكاف أو شبه فإنهما يدلان على المشابهة في بعض الوجوه فقط [1] وهذا يتلاقى مع بناء صفات أخيه على أفعل التفضيل، وهذا ظاهر في قوله :

أَعَفَّ وَأَجدى نـائلاً لِعَـشيرَةٍ ∴ وَأَكرَمِ مَخلودٍ لَدى كُلِّ مَجلِسِ

وَأَلْيَنَ مِنـهُ صَـفحَةً لِعَـشيرَةٍ ∴ وَخَيراً أَبا ضَيفٍ وَخَيراً لِمَجلِسِ

فانظر إلى أفعل التفضيل كيف شاع في تعبيره عن صفات أخيه (أعف، أجدى، أكرم، ألين، خيراً) فبناء الصفات على أفعل التفضيل يتلاءم مع ما قرره في أول القصيدة من أنه لا يوجد له مثيل أو نظير ..

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ٣٠٢ ط دار الكتب العلمية بدون تاريخ ..

المبحث الرابع

رابعا : التلاؤم بين صلة الشاعر بالمذكور في النسيب والرثاء

القصيدة الأولى والثالثة في رثاء أخيه ؛ إذ الأولى في رثاء أخيه عبد الله، والثالثة في رثاء أخيه خالد، بخلاف القصية الثانية فهي في رثاء معاوية بن عمرو بن الشريد أخي الخنساء..

ولا ريب أن علاقة الدم الموجودة بين الشاعر والمرثي لها أثر في تنوع مقدمة النسيب في القصيدة، واختلاف المعاني المذكورة في كل مقدمة تبعا لذلك..

ومع اتفاق القصيدتين الأولى والثالثة في أن المرثي فيهما على درجة واحدة من القرب، إلا أن اختلاف المقدمة راجع إلى الحالة التي قتل عليها المرثي، والتي أراد الشاعر إبرازها ...

فالحالة في القصيدة الأولى حال مقتل أخيه بمرأى ومسمع منه، وهي حال عجيبة كما عبر هو عن ذلك بقوله :

فَجِئتُ إِلَيهِ وَالرِمـاحُ تَنوشُـهُ ∴ كَوَقعِ الصَياصي في النَسيجِ المُمَدَّدِ

ومن هنا نلاحظ اختلافا كليا في بناء مقدمة النسيب .. ففي الأولى تتابع في أبيات النسيب في بيان أحوالها معه وصفاتها معه... هذا التتابع غير موجود في القصيدة الثالثة، والتتابع في الأحوال والصلة التي كان عليها من القرب، ثم ما آل إليه أمرها من فراقها وبينونتها .. وذكر صفاتها من حياء ورحيل ووصف موكبها .. التفرد في ذكر الصفات هنا والإكثار منها يقابله التفرد في ذكر صفات أخيه وتتابعها والإكثار منها.. دلالة على أنه وحده هو الذي يفعل هذا..

هذا فضلا عن أن ذكر صفات زوجه هنا (أم معبد) والإكثار منها، والنص على قرب عهدها .. يبين الصلة القوية التي كانت بينهما، والتي ضحى بها لأجل أخيه.. فصلة دريد بكل من أم معبد التي ذكرها في مقدمة النسيب وعبد الله الذي رثاه بهذه القصيدة صلة مخالطة وممازجة. فزوجه هي التي ذكرها في مقدمة النسيب، ولا توجد صلة مداخلة ومخالطة ومعاشرة أكثر مما يكون بين الزوجين...

وكذا نجد نفس الصلة من المخالطة والممازجة بين الشاعر والمرثي؛ إذ هو يرثي أخاه، وليس أيّ أخ، وإنما هو آثر الإخوة لدى الشاعر[1] ومما يدل على هذه الأثرة الصلة القوية التي كانت بينهما، حيث كانا لا يفترقان حتى في أثناء الغارات، بل إن الغارة التي قُتل فيها "عبد الله " أخو دريد كان دريد معه وقد دافع عنه دفاعا مريرا حتى تكسرت رماحه .. بل إنه كان يتمنى أن لو كان يستطيع أن يفديه بنفسه .. كما هو ظاهر في أكثر من موضع في القصيدة كما سبقت الإشارة إلى ذلك ..

وقد ظهر التعبير عن المخالطة والممازجة في الجانبين، في حديثه عن زوجه وفي حديثه عن أخيه، ففي حديثه عن زوجه وذكر صفات الحسن والجمال لها قبل أن تقول في أخيه ما قالته مما أدى إلى طلاقها وفراقها ...

مِنَ الخَفِرات لا سَقوطاً خِمارُها ∴ إذا بَرَزَت وَلا خَروجَ المُقَيَّدِ
وَكُلُّ تَباريحِ المُحِبِّ لَقيتُهُ ∴ سِوى أَنَّني لَم أَلقَ حَتفي بِمَرصَدِ
وَأَنّيَ لَم أَهلِك سُلالاً وَلَم أَمُت ∴ خُفاتاً وَكُلّاً ظَنَّهُ بِيَ عُوَّدي

فكل معاني الأبيات الثلاثة تدل على شدة تعلقه بها، وأن أحوالها معه كانت حسنة، وانظر إلى صيغة العموم في قوله : " وكل تباريح الحب لقيته " وما فيها من دلالة على محبته لها بكل أنواع المحبة ..

هذه المخالطة والممازجة كما ظهرت في حديثه عن زوجه ظهرت أيضا في حديثه عن أخيه، وقد عبر عن هذه المخالطة والممازجة بعدة طرق، ففي بعض المواضع يظهر هذه المخالطة بعدم تركه لأخيه وعدم تخليه عنه، أو تقصيره في الدفاع عنه، كما يظهر من قوله :

دَعاني أَخي وَالخَيلُ بَيني وَبَينَهُ ∴ فَلَمّا دَعاني لَم يَجِدني بِقُعدَدِ
فَجِئتُ إِلَيهِ وَالرِماحُ تَنوشُهُ ∴ كَوَقعِ الصَياصي في النَسيجِ المُمَدَّدِ
وَكُنتُ كَذاتِ البَوِّ ريعَت فَأَقبَلَت ∴ إِلى جَلَدٍ مِن مَسكِ سَقبٍ مُقَدَّدِ

---

(١) ينظر : الأغاني ١٠ / ٥ ، ترجمة دريد في مقدمة ديوانه ١٣ .

فَطاعَنتُ عَنهُ الخَيلَ حَتّى تَبــددتْ ∴ وَحَتّى عَلاني حَلكُ اللَــونِ أَســوَدِ
فَما رِمتُ حَتّى خَرَّقَتني رِمــاحُهُم ∴ وَغودِرتُ أَكبو في القَنــا المُتَقَــصِّدِ

وتارة يظهر المخالطة والممازجة لأخيه عن طريق إظهار ولائه لقبيلته وقومه، كما في قوله :

فَلَمّا عَصَوني كُنتُ مِنهُم وَقَد أَرى ∴ غِوايَتَهُم وَأَنَّني غَــيرُ مُهتَــدي
وَما أَنا إِلّا مِــن غَزِيَّــةَ إِن غَــوَت ∴ غَوَيتُ وَإِن تَرشُد غَزِيَّةُ أَرشَدِ

فإذا كانت هذه حاله مع قبيلته وهم في حال المخالفة له، فكيف بحاله مع أخيــه في حــال الموافقه، وهذا على حد قوله تعالى :﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لهُمَا قَوْلا كَرِيمًــا ﴾ [الإسراء٢٣] مما يدل على منع ما هو أكثر منه من باب أولى ...

وقد أكد بعد ذلك على هذه المخالطة بقوله :

دَعاني أَخي وَالخَيــلُ بَــيني وَبَينَــهُ ∴ فَلَمّا دَعــاني لَــم يَجِــدني بِقُعــدَدِ
أَخــي أَرضَعَــتــني أُمُّــهُ بِلِبانِها ∴ بِثَدي صَفاءٍ بَينَــنــا لَــم يُجَــدَّدِ

فانظر إلى قوله : (أخي) وإضافته لنفسه، وتكراره لـ (أخي) في بداية البيت الثاني ممــا يدل على امتلاء نفسه بهذه الأخوة وقيامه بمقتضياتها ومتطلباتها، ولذلك لا عجب أن يقــرر بعــد ذلك:

فَما رِمتُ حَتّى خَرَّقَتني رِماحُهُم ∴ وَغودِرتُ أَكبو في القَنا المُتَقَصِّدِ

بل والعجيب أننا نجد الصلة حينما انقطعت بين الشاعر وأخيه المرثي انقطاعا لا رجعة لــه بسبب موت أخيه، انقطعت الصلة أيضا بين الشاعر وزوجه أيضا انقطاعا لا رجعة فيــه بــسبب طلاقها وبينونتها ..

بل والأعجب أن انقطاع الصلة بين الشاعر وزوجه إنما كان بسبب أخيه المرثــي، كمــا ذكرت ذلك سابقا ..

هذا بخلاف القصيدة الثالثة فليس فيها ذكر لصفات المرأة ولا بيان لأحواله معها... لأنه لم يتعرض لبيان أحواله مع أخيه خالد، فذكر في كل مقدمة من الصفات والصلات ما يتناسب مــع الصفات والصلات المذكورة في الرثاء.

كما أن دريدا وإن صرح باسم المرأة في مقدمة النسيب إلا أن الاسم اختلف فيهما، ففي القصيدة الأولى ذكر (أم معبد)، بينما هو في القصيدة الثالثة ذكر (أميمة)، وإنما ذكر (أم معبد) في القصيدة الأولى ؛ لما لها من صلة بقول هذه القصيدة أصلا كما بينت ذلك فيما سبق..

أما المرأة التي صرح بها في القصيدة الثالثة فهي (أميمة) وأميمة التي ذكرها دريد بن الصمة في مطلع هذه القصيدة هل هي امرأة حقيقة خاطبها دريد بهذا الخطاب الجاد ؟ وأمرها أن تتحمل هذه المصيبة على كلفة ومشقة، وأن تشد عليها بين ضلوعها وتبتئس لذلك ..؟ أم هي امرأة تخيلها دريد وبدأ بها ليبني على حديثه معها صفات أخيه خالد ؟

كلا الأمرين ممكن، فقد تكون امرأة حقيقية كانت على صلة بالشاعر أو بأخيه خالد، وقد تكون امرأة لا وجود لها على أرض الواقع، وإنما تخيلها دريد ليبني على حديثه معها ما أراد أن يذكره ويثبته من صفات أخيه المرثي ..

ولكن مما يرجح الاحتمال الثاني، وأنها امرأة تخيلها دريد وأنه لا وجود لها، أن كتب التراجم لم تذكر هذه المرأة، ولم تذكر صلة الشاعر بامرأة تسمى أميمة، وكذا أيضا لم يذكروا صلة لأخيه بامرأة تسمى أميمة.. ولهذا لم يرد لها ذكر في ديوان دريد إلا في هذا الموضع فقط ..

ومما يقوي الاحتمال الثاني أيضا أن كلمة أميمة في اللغة فيها من معاني الشدة والبؤس ما فيها ؛ إذ من معانيها : الحجارة التي تشدخ بها الرؤوس، والأميم حجر تشدخ به الرأس[1] .. وهذا ملائم لحال الرثاء، وكأن دريدا بموت أخيه خالد شدخت رأسه وهشمت بحجارة صلبة قوية .. وهذا فيه من الألم والعناء والبؤس ما فيه ..

كما أن مقدمة النسيب في القصيدة الأولى تختلف عن مقدمة النسيب في القصيدة الثانية " ألا بكرت تلوم بغير قدر " وإن كان القاسم المشترك بينهما يظهر في آخر مقدمة القصيدة الأولى في قوله :

أَعاذِلَ مَهلاً بَعضُ لَومِكِ وَاقصِدي ∴ وَإِن كانَ عِلمُ الغَيبِ عِندَكِ فَارشِدي

أَعاذِلَتي كُلُّ امرِئٍ وَابنُ أُمِّهِ ∴ مَتاعٌ كَزادِ الراكِبِ المُتَزَوِّدِ

---

(١) ينظر لسان العرب (أمم) .

فهذه النهاية لأبيات النسيب تلتقي في معناها ومغزاها مع بداية القصيدة الثانية :

أَلا بَكَرَت تَلومُ بِغَيرِ قَدرِ ∴ فَقَد أَحفَيتِني وَدَخَلتِ سِتري

فَإِن لَم تَترُكي عَذلي سَفاهاً ∴ تَلُمكِ عَلَيَّ نَفسُكِ أَيَّ عَصرِ

إذ النسيب في القصيدة الثانية قائم على رد اللوم والعذل، دون التعرض لذكر أحوال المرأة وصفاتها، وما أصابه منها، إذ ذكر المرأة هنا أقرب إلى ذكر المرأة عند أبي ذؤيب الهذلي في قصيدته في رثاء أولاده.. ؛ لأنه ذكر المرأة لرد عذلها ولومها..

وإذا ينعم النظر في مقدمة النسيب في قصيدة "أرث جديد الحبل " ومقدمة النسيب في قصيدة " ألا بكرت تلوم بغير قدر " يجد عدة فروق واضحة منها :

- أنه في قصيدة " أرث جديد الحبل " صرح باسم المرأة التي ذكرها في مقدمة النسيب "أم معبد " ولم يصرح بها في القصيدة الثانية، وإنما ذكرها بضمير الغيبة " ألا بكرت .." وإنما صرح بها هناك لأن سياق القصيدة وغرضها يقتضيان ذلك ؛ إذ هي لم تكتف بعذله ولومه، وإنما تجاوزت ذلك وسبّتْ أخاه وصغرت شأنه ، كما ذكرت كتب التراجم، وكما صرح هو بذلك في قوله : " أعبد الله إن سبتك عرسي..." فكان هذا سببا في طلاقها وبينها ؛ ولذلك نص عليها وذكرها صراحة باسمها .. بينما هنا لم تسب معاوية، وإنما اكتفت بعذله ولومه .. ولذلك لم يذكر حاله معها، وهل أبقى عليها أم فارقها؟ لأن ذكرها وبيان حالها لم يتعلق به غرض ؛ ولذلك لم ينص عليها ولم يسمها باسمها..
- أنه في قصيدة " أرث جديد الحبل .." ذكر فراقها وطلاقها وبينها، بينما هنا لم يذكر شيئا من ذلك، وإنما نص على ذلك في القصيدة الأولى ؛ لأن المرثي كان أخاه، بينما المرثي هنا ليس قريبا له، بل وليس من قبيلته، وإنما كان بينهما عهد على الرثاء والمطالبة بالثأر.. فلا يحتاج الأمر هنا إلى أن يفارق زوجه لذلك ... هذا بخلاف القصيدة الأولى " أرث جديد الحبل " فإن الصلة القوية بينه وبين المرثي " أخيه عبد الله " جعلته يفضل أخاه على زوجه، بل ويطلق زوجه طلاقا لا رجعة فيه ؛ لأنها عابت أخاه وصغرت شأنه ..
- أنه في القصيدة الأولى " أرث جديد الحبل " ذكر صفات الحسن والجمال لزوجه، كما ذكر حبه الشديد لها، وأنه لاقى معها كل تباريح الحب .. بينما لم يذكر شيئا من صفات الحسن

هنا ؛ وذلك لأن ذكر صفات الحسن في القصيدة الأولى يلائم ما كان يصبو إليه في هذه القصيدة ؛ إذ القصيدة مبنية على بيان مدى تضحيته من أجل أخيه، وأنه ضحى في سبيل أخيه بكل ما يملك من غال ورخيص، ومن ذلك أنه ضحى بزوجه التي يحبها، والتي كان عهدها جديدا ... فذكر صفات الحسن يلائم سياق إظهار تضحيته، بينما هو هنا لم يتعرض لبيان تضحيته لأجل معاوية ؛ ولذلك لم يحتج إلى إبراز ما ضحى به من حب زوجه، وبالتالي فلا حاجة لذكر صفات حسن أو جمال ..

- أنه ذكر في قصيدة " أرث جديد الحبل " الموكب الذي رحلت عليه زوجه ووصفه .. وهذا يلائم ذكر فراقها ورحيلها مع حبه لها وتعلقه بها ... بينما لم يذكر شيئا من ذلك في القصيدة الثانية " ألا بكرت تلوم" لأنه لم يتعرض لذكر فراقها ورحيلها، وبالتالي فليس هناك ما يبرر له أن يذكر موكبها أو يصفه ..
- أنه في القصيدة الثانية ذكر أثر لومها له على نفسه، وأثر ذلك عليها أيضا إذا لم تنته عن هذا اللوم، بينما لم يذكر شيئا من ذلك في قصيدة " أرث جديد الحبل " وذلك لأن ذكره لأثر اللوم في القصيدة الثانية ملائم لما ذكره في القصيدة من بيان أثر موت معاوية على نفسه، بينما في القصيدة الأولى " أرث جديد الحبل " لم يتعرض لذكر أثر موت أخيه عبد الله على نفسه، وإنما ركز على بيان دفاعه عن أخيه، وعدم تقصيره في دفاعه، وعلى ذلك فليس هناك ما يدعو إلى بيان أثر لومها في نفسه ...

ومن هنا يتضح لنا كيف إن مقدمة النسيب تختلف من قصيدة لأخرى عند الشاعر الواحد في الغرض الشعري الواحد تبعا لاختلاف سياق كل قصيدة ومقامها والمراد منها .. حتى تكون مقدمة النسيب ملائمة أشد الملاءمة لموقعها الذي وُضعت فيه ...

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير الكائنات سيدنا محمـــد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

وبعد،،،،،

فهذه كانت دراسة للمقدمة الغزلية في قصيدة الرثاء في شعر دريد بن الصمة وبيان مدى التلاؤم بين اجتماع الغزل والرثاء في قصيدة واحدة، ويمكن إجمال أهم النتائج التي تم التوصل إليها على النحو الآتي :

أولا : أن الأحكام النقدية التي وردت عن العلماء الأوائل ينبغي أن ينظر فيها مرة أخرى لبيـــان الصحيح منها من غير الصحيح بناء على استقراء كلام العرب ومعرفة سننها وطرائقها في القول ..

ثانيا : أن المرأة لم تكن أثيرة عند دريد ولم تمثل له جانب اللهو والسرور، وإنما كانت مصدر الشقاء والحزن والبؤس ؛ ولذلك كان ذكرها ملائما لسياق الرثاء .

ثالثا : أن المقدمات الغزلية التي ذكرت في قصائد الرثاء لم تكن من النوع الجزل الطـــروب الـــذي يذكر فيه الوصل والتمتع بالمرأة، وإنما كانت تذكر البين والفراق وعدم التلاقـــي ... ممـــا يتلاءم ويتناسب ويتلاقى مع الرثاء .

رابعا : أن ما ذكره ابن رشيق تبعا لابن الكلبي من أنه ليس هناك قصيدة رثاء بـــدأت بـــالغزل إلا قصيدة دريد بن الصمة = غير صحيح، وأثبت البحث أن هناك الكثير من قصائد الرثـــاء التي تبدأ بالغزل .

خامسا : أن مقدمة النسيب في قصيدة الرثاء يختلف نظمها وطولها، والمعاني التي تذكر فيهـــا تبعـــا لاختلاف الغرض من قصيدة الرثاء في كل موضع .

سادسا : أن دريد بن الصمة صرح باسمين من أسماء النساء في مقدماته الغزلية، وهما " أم معبد " في رثاء أخيه عبد الله، وأميمة في رثاء أخيه خالد، وكل موضع يناسبه فيه الاسم الذي ذكـــره فيه الشاعر، بينما هناك موضع لم يصرح فيه باسم امرأة بعينها وذلك في رثاء معاويـــة بـــن عمرو بن الشريد .

سابعا : أن الأسماء التي ذكرها دريد في مقدماته الغزلية في قصائد الرثاء لم تذكر عنده في مقدمات أخرى غير الرثاء مما يدل على أنه كان يقصد إلى ذكر هذه الأسماء في سياق الرثاء دون غيره .

ثامنا : أنه أكثر من ذكر صفات المرأة في النسيب في القصيدة الأولى : "أرث جديد الحبل" دون بقية القصائد الأخرى في الرثاء، وذلك لأنه قال هذه القصيدة بعد مقتل أخيه بسنة، فكانت نفسه قد هدأت وذهب عنها ثورة الغضب والحزن .. هذا فضلا عن الإكثار من ذكر الصفات في النسيب هنا يتلاقى مع الإكثار من ذكر الصفات في الرثاء..

تاسعا : أنه لم يذكر صفات حسن وجمال للمرأة المذكورة في النسيب إلا في القصيدة الأولى ؛ وذلك لأنه أراد من ذكر صفات الحسن والجمال وقرب عهده بها أن يدلل على أنه مع حسن المرأة وجمالها .. إلا أنه ضحى بكل ذلك من أجل أخيه، وهذا يلائم الغرض الذي قصد إليه في هذه القصيدة .

وأخيرا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه وأن ينفع به إنه ولي ذلك والقادر عليه ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

د . محمد أحمد أحمد أبو نبوت

المصادر والمراجع

- الأصمعيات، للأصمعي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، طبعة دار المعارف ١٩٥٥ .
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان. طبعة ثانية ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م.
- تاج العروس للزبيدي، طبعة بيروت ١٩٦٦ م.
- تاريخ ابن عساكر، تصحيح الشيخ عبد القادر بدران ١٣٣٢ هـ .
- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي تحقيق د / محمد علي الهاشمي طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ/١٩٨١ م .
- خزانة الأدب، عبد القادر بن عمر البغدادي طبعة بولاق ١٢٩٩هـ.
- دالية دريد تحليل بلاغي، د. علي عبد الحميد عيسى، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد السابع والعشرون سنة ٢٠٠٨م.
- ديوان الحماسة للبحتري، تحقيق الأب لويس شيخو، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .
- ديوان دريد بن الصمة، تحقيق د. عمر عبد الرسول، طبعة دار المعارف .
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، طبعة دار صادر بيروت .
- ديوان المرقشين، طبعة دار صادر بيروت .
- ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، تحقيق كرنكو، نشر القدسي ١٣٥٢هـ .
- ديوان النابغة الذبياني، طبعة دار صادر بيروت .
- رغبة الآمل من كتاب الكامل، سيد بن على المرصفي، طبعة أولى ١٩٢٧م.
- الروض الأنف، أبو القاسم السهيلي ١٣٣٢ هـ .
- شرح أشعار الهذليين، صنعة السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فرج، طبعة مكتبة دار التراث، طبعة ثانية ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشره أحمد أمين – عبد السلام هارون، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ / ١٩٥١م.
- شرح المفضليات للتبريزي، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار نهضة مصر .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، تحقيق عبد الحميد هنداوي، طبعة المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- الفروق اللغوية أبو هلال العسكري طبعة دار الكتب العلمية بدون تاريخ .
- لسان العرب لابن منظور طبعة بولاق ١٣٠٣هـ.
- محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١٢٨٧هـ.
- مختارات شعراء العرب لابن الشجري، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- المعمرون والوصايا، أبو حاتم السجستاني، تحقيق عبد المنعم عامر ١٩٦١م.
- المقدمة الغزلية في قصيدة الرثاء عند أبي ذؤيب مذاهب ومراتب وأحوال، د. مصطفى أحمد عبد الله جابر، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بجرجا ٢٠٠٨م.
- مقدمة القصيدة الجاهلية عند حسان بن ثابت، د. محمود عبد الله أبو الخير، بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى العدد التاسع عشر .
- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، د. حسين نصار، طبعة دار المعارف ١٩٧٠م.
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، طبعة الخانجي ١٩٦٣م.
- الوحشيات، لأبي تمام، تحقيق عبد العزيز الميمني، طبعة دار المعارف ١٩٧٥م.